شعراء اليهود
فى الجاهلية وصدر الإسلام

للدكتور أحمد محمد النجار

---

(١)
من تاريخ اليهود ببلاد العرب

يضطرنا منهج البحث فى تاريخ هجرة اليهود إلى الجزء الشمالى الغربى من شبه الجزيرة العربية إلى التثبت ، وسعنا ، من رواية تلك الأخبار التى ترددت حول هذا التاريخ ، ما دام القصد إلى بلوغ الحقيقة التاريخية عن تلك الفترة التى طمست معالمها الروايات الشفهية ، مما قد يكون منقولا عن مسلمة اليهود من جانب ، كما ألقى عليها ظلالا من الشك والحيرة ما روى عنها فى بعض أسفار « العهد القديم » من جانب آخر .

ولقد اعتبر « العهد القديم » المصدر الوحيد لأخبارها التى لم تثبت فى وعى التاريخ المدون ، غير أن تلك الأخبار لم تسفر عن وجه الحقيقة المنشودة إلا إشارات لم تدل بوضوح ، أو روايات ممتزجة أحياناً بأساطير جرت بها ألسنة رواتها فى مرحلة البداوة وشيوع الأمية ، فغدت من التراث الشعبى الذى جمع فى عصور التدوين الأولى .

فالمنهج — إذن — يتطلب التوقف عند تلك المرويات والأخبار التى لم يثبت صدقها ولا كذبها . فأما ما نقل عن أحبار اليهود ، فقد روى عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قوله فيهم : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » .

وأما ما روى عن بعض أسفار العهد القديم المتداول بأيدى الناس فإن الشك والتحرج يقفان دون الاعتماد على تلك الروايات التى حشدها كتاب أخبار الأيام

وأسفار بعض الأنبياء مثل أرميا وحزقيال . وقد نتجاوز الشك فى أخبار تلك الأيام الخالية إلى الحذر مما ترويه أسفار التوراة نفسها لأنها (كانت قد فقدت من المجتمع اليهودى لعدة قرون بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذى كتبه (عزرا — عزير عند العرب — مختلفاً جداً عما أنزل على موسى ، فبين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان[١] .

وأما إنها إشارات غير واضحة الدلالة ، فإن ما روى فى « أخبار الأيام الأول » : (الإصحاح ٢٤) عن هجرة أولاد شمعون بن إسرائيل وتجوالهم فى المنطقة الجنوبية — غير كاشف عن المدى الذى بلغوه من تلك النواحى ، وقد (ساروا إلى مدخل جدور إلى شرق الوادى ليفتشوا عن مرعى لماشيتهم ، فوجدوا مرعى خصيباً وجيداً ، وكانت الأرض واسعة الأطراف مستريحة ومطمئنة ، لأن (آل حام) سكنوا هناك فى القديم ... وجاء هؤلاء المكتوبة أسماؤهم فى أيام حزقيا ملك يهوذا ، (٧٢٦ — ٦٩٨ ق . م (وضربوا خيمهم (والمعونيين) الذين وجدوا هناك ، وحرموهم إلى هذا اليوم ، وسكنوا مكانهم ، لأن هناك مرعى لماشيتهم ، ومنهم من بنى شمعون ذهب إلى جبل سعير خمس مئة رجل .. وضربوا بقية المنفلتين من (عماليق) وسكنوا هناك إلى هذا اليوم)[٢] .

والمعروف أن (آل حام) — ويقصد بهم كاتب الأخبار (الكنعانيين) كانت تخوم أرضهم (من صيدون — صيدا — حينما تجىء نحو جرار إلى غزة ، وحينما تجىء نحو سدوم ..)[٣] حتى قبل أن ينزل بها قوم لوط فى الجنوب ، ولم يتجاوز بنوشمعون الأرض التى كانت لقبائل معان فى أقصى الشمال الغربى للجزيرة العربية ، وجبل سعير الواقع فى الجنوب على حدود (بادية صين) إلى الشرق ، وعلى حدود آدوم إلى الغرب ، حيث ضربوا بقية المنفلتين من (عماليق) .. والضباب يغشى هذه الصورة والغموض يحيط بهذه الإشارات أو الدلالات ، ومن أجل هذا وذاك اضطربت أقوال « دوزى » و « مرجليوث » وغيرهما فى تحديد مكان تلك الهجرة

---

(١) الفكر الدينى الاسرائيلى (ص ٢٣) .
(٢) أخبار الأيام الأول (الاصحاح الرابع من الجملة ٢٤ ...)
(٣) سفر التكوين (العاشر من الجملة ١٩ ..)

وزمانها . وقد رددوا لها تواريخ بين سنى ألف، وألف ومائتين ، وسبعمائة وسبع عشرة إلى ستمائة وتسعين ، والتاريخ الأخير يحدد ملك « حزقياه » الذى حكم بلاد يهوذا فى تلك الفترة)[١] .

وبطل كذلك مازعمه هؤلاء المستشرقون من أن اليهود سكنوا حينئذ بين جهات يثرب ومكة معتمدين على أقوال الجغرافى (سترابو) الذى أورد أسماء قبائل الجزيرة العربية . وسكناها بأقاليم وزعها على أساس مخالف للتقسيم الذى اصطلح عليه أكثر الجغرافيين من عرب وغير عرب[٢] .

وأما إنها أخبار مدخولة بأساطير فإن الثقات من المؤرخين يرفضون ما روى منها عن تلك الفترة التى غلبت عليها البداوة ، وقد ظل كثير من أحفاد العبرانيين فى أرض يهوذا المرتفعة يتبعون حياة الرعى قبل أن يعرفوا الاستقرار وينتقلوا إلى طور آخر من أطوار حياتهم ؛ كما رفض هؤلاء المؤرخون تلك القصص الشعبية التى تناولت حياة اليهود فى محاولة منهم لبث مشاعر الإعجاب ببطولتهم واستبدادهم بالأرض التى لم تكن لهم ، وغلبة أصحابها على أمرهم فى سرد ملحمى تختلف فيه نسبة ما هو أسطورة وما هو تاريخ واقعى[٣] .

وإذا استظهرنا بقانون الاحتمال والضرورة للوصول إلى الحقيقة أو ما يقرب منها ، ونحن نتتبع سير الحركة التاريخية التى لم تحظ فى عصور التدوين الأولى بما يكشف النقاب عن وجهها ، ويزيل غواشى الشك والغموض من حولها — فإنه تقوم للباحث وسائل الاجتهاد القائمة على الفروض أو الاحتمالات المؤيدة بالحوادث المصاحبة ، والأحوال السائدة ، والظروف الناشئة من الصراع بين القوى المؤثرة فيها أو المتسلطة عليها ، ولعل من الاحتمالات القوية التى تقوم عليها الشواهد التاريخية احتمال استمرار النشاط الرعوى والتجارى بين سكان تلك النواحى ، وقد سلكت القوافل التجارية أو (قوافل التوابل)[٤] ، كما تسمى أحياناً ، طرقاً مشهورة ربطت

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب (ص ٢ وما بعدها) .
(٢) انظر تاريخ العرب العام لسيديو (ص ٢٢)
(٣) الفكر الدينى الاسرائيلى (ص ١٢)
(٤) كان الغالب على السلع أن تكون من التوابل وخاصة البخور ثم توسعوا فى تجارة السلع الأخرى مثل الصوف والحرير والأوانى الزجاجية والعطور والخمور الخ . . .

بين جنوبى الجزيرة العربية وبلاد الشمال فى العراق وسورية وفلسطين منذ عهد داود وسليمان ، مروراً من الجنوب بحضرموت إلى مأرب ومكة ويثرب وواحات وادى القرى وتيماء إلى البتراء فبلاد كنعان وفلسطين وغيرهما مما دخل فى ملك سليمان الواسع ، وقد صارت هذه الطريق مألوفة للتجار وحراس القوافل وغيرهم منذ ذلك التاريخ أو قبله ، وكانت تنشعب عند البتراء إلى شعبتين : تتجه أولاهما إلى غزة غرباً ، وترتفع أخراهما إلى بصرى ودمشق شمالا ، وكذلك امتدت طرق أخرى كانت تسلكها تلك القوافل كالتى كانت تتجه من الشمال مبتدئة من دمشق ونازلة نحو الجنوب مارة بتدمر حتى تبلغ وادى الفرات ، أو تتخذ سبيلها من « تدمر » نحو وسط الجزيرة العربية مجتازة بصرى والبتراء فى اتجاه الواحات الشمالية حتى تبلغ يثرب ومكة الواقعتين على طرق القوافل . وكالطريق التى كانت تمتد من (العقير) الواقعة على الخليج العربى وتتفرع إلى فرعين كان أحدهما يتجه إلى اليمن ، والآخر يسلك قلب الصحراء إلى تيماء ومنها إلى البتراء أيام حكم اليونان للمنطقة فى القرن الرابع قبل الميلاد .

إذاً هى شبكة من الطرق التجارية تمتد فى مساحات شاسعة من الصحارى التى شهدت حركة الرعى والترحل وراء الكلأ والماء من جماعات البدو منذ كان العبرانيون فى طور البداوة كغيرهم من أبناء إسماعيل (العرب) وأهل مدين ، وأصحاب ممالك آدوم وموآب وعمون ، وكانت طبيعة البدو فيهم جميعاً واحدة ، فإذا أجدبوا انتشروا فى الأرض ابتغاء المراعى والمياه ، أو اعتدوا ليعيشوا ، ولذلك احتاجت طرق القوافل إلى من يحرسها ويحميها من غارات المغيرين الذين كانوا يترصدونها ، ويتحركون فى اتجاهات سيرها .

ولما كانت البيئة الصحراوية ذات طبيعة مشتركة ، حتى اعتبرت تلك البوادى والصحارى امتداداً واحداً يصل بين أرجائها فى الشمال والشرق والغرب — صارت حركة الرعاة نشيطة بهذه النواحى كلها ، وامتدت فسلكت مع الطرق التجارية إلى تلك الواحات الخصبة التى صارت على مدى فترة طويلة من التاريخ مأوى لبعض القبائل اليهودية ، وربما كانوا من الرعاة فى أول أمرهم ، ثم استقروا فى تيماء ووادى القرى وخيبر ثم يثرب وما حولها من أودية كمهزور وبطحان ، وكانت تيماء بخاصة ذات شهرة قديمة ، إذ يرجع العهد بها إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، لأن

أهلها كانوا ممن ناجاهم أشعيا (٧٤٠ ق . م (بقوله :) هاتوا ماء للاقاة العطشان ياسكان أرض تيماء ، وافوا الهارب بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، ومن أمام السيف المسلول ، ومن أمام القوس المشدودة ،و من أمام شدة الحرب[١] .

وقد تفيد هذه المناجاة استغاثته بأهل تيماء للأخذ بيد اليهود الهاربين من بطش الأشوريين الذين ساموهم سوء العذاب ، فقد خربوا السامرة سنة ٧٢٢ ق. م ، وهدموا أورشليم سنة ٧٠١ ق. م ، وسبوا منهم خيرة رجالهم ،ويعتقد أن الفارين وجدوا فى أرض تيماء مأوى لهم ، ومجالا جديداً لمزاولة نشاطهم فى الزراعة والتجارة ، كما أنها صارت مهاجراً لهم من بين الأماكن التى نجوا فيها بأنفسهم فى المراحل التالية من تاريخهم الحافل بالأحداث التى غشيتهم ، وبددت جموعهم ، ومن أبرز هذه الأحداث ما أصاب أورشليم من تخريب البابليين سنة ٥٨٦ ق . م ؛ (فقد بنى نبوخذ نصر (٦٠٥ — ٥٦٢ ق. م) عليها المدر للحصار ، وأقام ثلاث سنين ، واشتد الحصار بهم فخرجوا هاربين إلى الصحراء ، واتبعتهم العساكر (الكسدانيين الذين منهم بختنصر) ولحق بعض من بنى إسرائيل بالحجاز فأقاموا مع العرب[٢] وكان السبى البابلى المشهور أيضاً كارثة حلت بهم حينئذ ،فقد قدر عدد المسبيين بخمسين ألفا ؛ ولم يبق فى مملكة يهوذا ، غير جماعة من البائسين[٣] .

وعندما شهدت الدولة البابلية الجديدة آخر أيامها كان يحكمها ملك يدعى (نابونيدس) (٥٥٦ — ٥٣٨ ق. م) كانت تيماء بحيث تحتويها رقعة مملكته ، وكان هذا الملك ولوعاً بالآثار ، وقد اتخذ منها مقراً له مدة من الزمن[٤] ، لأنها كانت من أمهات القرى فى ذلك الحين لوقوعها أيضاً ببلاد الحجر بالقرب من مدائن صالح ذات الآثار العريقة التى لم تزل مجهلا لم يكشف عنها النقاب ، وقد عثر فى تيماء على كتابة بالخط الآرامى تتحدث عن أهمية هذا المكان ورقيه فى ذلك العهد ، كما عثر على آثار معبد قديم ، ومرقاة مدرجة تؤدى إلى بناء مربع لعله معبد من

---

(١) سفر أشعيا (٢١ من الجملة ١٤ ..)
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢١/١٠٦ وما بعدها) .
(٣) تاريخ سورية ص ٢٢٠
(٤) تاريخ سورية ص ٢٣٩

معابد القوم بنى هناك تلها[١] . . . ثم أبادر إلى إثبات تلك الملاحظة وهى أن دخول أخبار تلك النواحى عصر التاريخ المدون منذ عهد الإمبراطورية الرومانية قد أشاع جواً من الثقة فى تلك المرويات على شروط التاريخ ، وقد عرفنا من المؤرخين القدماء المؤرخ اليهودى يوسفوس (٣٧ — ١٠٠ م) وهو الذى قيل عنه : إنه قلما يوجد اسم آخر غيره يستحق الذكر فى علم تدوين التاريخ فى سورية ، وقد ألف كتابى « تواريخ اليهود ، وحروب اليهود » باليونانية ، ثم ترجما إلى الإنجليزية واعتمد عليهما كثير ممن كتب فى تاريخ سورية ، أو تاريخ اليهود ، أو السيد المسيح . ومما يستوجب الذكر والثناء أن هذا المؤرخ كان واحداً من المؤرخين (الأجانب) الذين نقل عنهم أخبار حروب اليهود مؤرخنا العربى الكبير ابن خلدون فى كتابه (العبر وديوان المبتدأ والخبر) فقال :

(هذه الأخبار التى كانت لليهود ببيت المقدس ، والملك الذى كان لهم فى العمارة بعد جلاء بختنصر وأمر الدولتين اللتين كانتا لهم فى تلك المدة ، لم يكتب فيها أحد من الأئمة ، ولا وقفت فى كتب التاريخ مع كثرتها واتساعها على ما يلم بشىء من ذلك ، ووقع بيدى وأنا بمصر تأليف لبعض علماء بنى إسرائيل من أهل ذلك العصر فى أخبار البيت والدولتين اللتين كانتا بها ما بين خراب بختنصر الأول وخراب طيطش (تيطس) الثانى الذى كانت عنده الجلوة الكبرى استوفى فيه أخبار تلك المدة بزعمه ، ومؤلف الكتاب يسميه ابن خلدون (يوسف بن كريون) — جريون — الذى زعم أنه كان من عظماء اليهود وقوادهم عندما زحف الروم إليهم ، وأنه كان على صولة فحاصره أسبيانوس أبو طيطش .)[٢] .

والخبر بتمامه يؤكد أنه « يوسفوس » الذى قيل عنه : « إنه كان شاباً ذهب إلى رومة ليدافع أمام نيرون عن قضية بعض الكهنة من أبناء دينه ، ولدى عودته أصبح قائداً فى الجيش اليهودى فى ثورته ضد السيادة الرومانية ، وقد أسر ، إلا أن « فسباسيان » أنقذه[٣] .

---

(١) تاريخ العرب قبل الاسلام ٤/١٥٧ وما بعدها .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/١٦٦
(٣) تاريخ سورية ص ٣٥٢

وهذا يوافق فى جملته ما قاله ابن خلدون عنه ، ويزيد من قيمة تاريخ ابن خلدون ، ويصد عنه بعض عوادى النقد . وسنشعر بالطمأنينة إذ نستعرض أخبار تلك المنطقة ونستجلى الحقيقة الممكنة منها ما أعاننا النصوص التاريخية التى تحدثت عن أخبار اليهود وحركة الهجرة إلى المناطق المجاورة للأرض التى سكنوها أو استولوا عليها بالقوة على نحو ما تصوره أخبار أيامهم وقضاتهم وقادتهم وأنبيائهم ، وقد يعيننا الاجتهاد أيضاً على ذلك كلما دعت إليه ضرورة البحث فنقول :

إن ظهور الأنباط على مسرح الأحداث منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد كقوة مؤثرة فى المنطقة ، ثم مسيطرة على ما كان يسمى ببلاد الحجر فى الشمال الغربى مع ما احتلوه من بلاد آدوم وموآب وما جاورهما حتى دمشق — كان لتفجر تلك القوة آثار ظاهرة منذ أصبحت لهم عاصمة حصينة حفرت فى قلب الصخور وكأنهم رأوا بعض آثار ثمود قوم صالح الذين (. . كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين[1] متخذين لمدينتهم اسماً يونانياً يفيد معنى الصخرة هو لفظ (Petra) واختاروا لها موقعاً ممتازاً يتحكم فى طرق القوافل التى تربط بين الجنوب والشمال كما كان يسيطر على الطرق المتفرعة منها إلى غزة وبصرى ودمشق ، وإلى أيلة على الخليج الغربى والطريق الممتد عبر صحراء النفود إلى الخليج العربى فى الشرق . حتى عظمت قوتها وازدهرت حياتها بفضل تمكنها من الاستقرار الحضارى القائم على الزراعة بتحويل جزء من أرض الصحراء إلى مناطق صالحة للاستنبات ، وما شاع عنهم من قدرة على الاحتفاظ بمياه الأمطار واستغلالها، واستنباط المياه الجوفية إلى أن صاروا أصحاب مملكة فى القرن الثانى قبل الميلاد أو سنة ١٦٩ على وجه التحديد . وعندئذ بدأ سير الأحداث يوجهونه تارة إلى مخالفة اليهود فى عهد الأسرة المكابية ، ولم يدم ذلك طويلا ، وتارة أخرى يوجهونه إلى إثارة القلاقل بينهما . وقد دام ذلك بسبب ما كان يقع بينهما من تنافس وتباغض .

وسجل التاريخ أن (عبيدة) أحد ملوكهم (فى سنة ٩٠ ق.م) قد ألحق هزيمة بالملك المكابى (جنايوس) فى معركة على الشاطىء الشرقى لبحر الجليل ، ثم خلفه (الحارث الثالث (٨٧ — ٦٢ ق.م) الذى نال من جيش اليهود مراراً فى أورشليم

---

(١) سورة الحجر الآية ٨٣

حتى كان عهد (الحارث الرابع) (٩ ق — ٦٠ م) وفيه عظم شأن تلك المملكة ، وازدهرت مظاهر الحضارة والعمران فيها حتى تودد إليه الحاكم الرومانى (اليهودى الأصل) « هيرودس الصغير » وتزوج ابنته ثم ما لبث أن طلقها فى قصة تحكى ، فشن الحارث عليه حرباً مظفرة كما يروى يوسفوس(١) .

تلك الحروب كلها وما وليها كانت سبباً قوياً من أسباب تسمية اليهود فيما بعد « بيهود الشتات » فقد زادت حركة الهجرة إلى حيث كانوا يرغبون فى السعى بكل أرض (تفيض لبناً وعسلا) إذ كان هذا وكدهم ودأبهم من قديم ، ولن ننسى ثورتهم على موسى وأخيه هارون عندما نال منهم الجوع والعطش فى برية سينا خارجين من مصر ، وقد تمنوا أن يعودوا إلى حيث كانوا ينعمون برغد العيش ، أو كما قالوا لهما : (ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزاً للشبع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا هذا الجمهور بالجوع(٢) كما كانوا يكون قائلين : (من يطعمنا لحما ، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله بمصر مجاناً ، والقثاء والبطيخ والكرات والبصل والثوم ، والآن قد يبست أنفسنا(٣).

وبعد أجيال منهم لم تنس أنهم صموا عن دعوة أنبيائهم الذين زينوا فى قلوبهم حب العودة إلى أرض (المعاد) ، وكانوا قد سبوا فيها ، ولما مكنهم الملك الفارسى (كورش) من العودة لم يستجب لها إلا (الذين لم تكن لهم جذور فى الأرض الجديدة (بابل) : وقد عودنا اليهودى بكل زمان أنه إذا تمول واقتنى واغتنى بأى مهاجر فضل الإقامة فيه ، وإن كانوا قد حرصوا — ومازالوا يحرصون — على نقاوة « دمهم الأزرق » : دم الحياة والإيمان بزعمهم كما كان يغرسه فى نفوسهم بعض قادتهم وأحبارهم تاكيداً لعقيدتهم العنصرية القومية .

ومن ثم وجدنا خط سير مهاجرهم كان يتجه فى العالم القديم إلى مصر ، ثم إلى بعض المناطق المجاورة لأرض فلسطين ، فى بلاد العرب ، وكانت شهرة مملكة الأنباط ورقيها الحضارى ، وخاصة فى مجال الزراعة والتجارة — سبباً من أسباب هجرتهم إلى الأرض التى كانت تضمها هذه المملكة وتشمل منطقة الحرات الشمالية ،

---

(١) تاريخ سورية ص ٤٢٢
(٢) سفر الخروج (١٦ — الجملة الثالثة . .)
(٣) سفر العدد (١١ الجملتان ٤ ، ٥)

وكان يشقها طريق تجارة القوافل من الغرب إلى الشرق ماراً بواحة تيماء وماجاورها من مناطق كانت تتمتع بالخصب والخير ، فشدوا إليها الرحال فى جماعات قليلة فى أول الأمر ، شرعت تزاول حرفاً متعددة فى الزراعة والتجارة والصناعة ، وهى الحرف التى كان العربى فى الصحراء يأنف من مزاولتها ، ويفضل عليها حياة البدو الخشنة بحثاً عن الماء والكلأ ، أو العيش من وراء حراسة القوافل ، أو الإغارة للسلب والنهب ؛ فلما وقعت الواقعة بعد ظهور الروم على بلادسورية وقمع ثورات اليهود المتعددة ضد حكمهم — امتاز عهد « نيرون » قيصر رومة بالبطش والتخريب ، فقد وكل إلى قائده (فسباسيان) واسمه (اسبنانوس فى تاريخ ابن خلدون) مهمة القضاء على مقاومة اليهود ، ومحاصرتهم بأورشليم . ولما مات نيرون ملك البطارقة فسباسيان . . وقد أراه مفيداً وطريفاً أن أنقل هنا الوصف الذى رواه ابن خلدون عن المؤرخ اليهودى (يوسف بن كربون) شاهد تلك الأحداث الدامية إذ قال :

(وسار « اسبنانوس » إلى رومة ، وخلف نصف العسكر مع ابنه طيطوش ، وقد عظمت الفتن والحروب بين اليهود داخل القدس وكثر القتل ، ولما انسلخ الشتاء زحف طيطوش فى عسكر الروم ، وركب إلى باب البلد يتخير المكان لمعسكره ويدعوهم إلى السلم ، فصموا عنه وأكمنوا له بعض الخوارج فى الطريق فقاتلوه ، فعرّى عسكره من الغد ، ونزل بجبل الزيتون شرقى المدينة ، ورتب العساكر وآلات الحصار ، واتفق اليهود داخل المدينة ، ورفعوا الحرب بينهم ، وبرزوا إلى الروم فانهزموا ، ثم عاودوا فظهروا ، ثم انتقضوا بينهم وتحاربوا ، ثم اجتمعوا على مقاومة طيطوش فبرزوا إليه وردوه إلى قرب معسكره ، وبعث إليهم قائده فى طلب الصلح فأصابوه بسهم قاتل ، فغضب طيطوش وصنع كبشاً[1] وأبراجاً من الحديد توازى السور ، وشحنها بالمقاتلة ، فأحرق اليهود تلك الآلات ، وعادوا إلى الحرب بينهم ، فأعاد طيطوش الزحف بالآلات وثلم السور الأول وملكه ، فاصطلح اليهود بينهم وتذامروا واشتدت الحرب وباشرها (طيطوش) بنفسه ، ثم زحف بالآلات إلى السور الثانى فثلمه ، وتذامر اليهود فمنعوهم عنه ، ومكثوا كذلك أربعة أيام ، وجاء المدد من الجهات إلى طيطوش (وهنا يذكر أن مالكو الثانى آخر ملوك الأنباط أرسل

---

(١) الكبش جمع كبش والأصح الكبوش وهى آلات للحرب كانت تستعمل فى الحصار لقذف الحصون .

فى عام ٦٧م ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة لمساعدة تيطس فى هجومه على أورشليم[١] (. . . ثم إن اليهود لاذوا بالأسوار وأغلقوا الأبواب ، فدعاهم طيطوش إلى المسالمة فامتنعوا ، فجاء بنفسه فى اليوم الخامس وجاء معه (يوسف بن كريون) فوعظهم ورغبهم فى أمنة الروم ووعدهم ، وأطلق طيطوش أسراهم . فجنح الكثير من اليهود إلى المسالمة ، ولكن طال الحصار واشتد الجوع حتى رحمهم طيطوش ، ورفع القتل عمن يخرج فى ابتغاء العشب ، ثم زحف طيطوش إلى السور الثالث من أربع جهاته ونصب الآلات ، وصبر اليهود على الحرب وعظمت المجاعة فمات أكثر اليهود ، وأكلوا الجلود والخشاش والميتة . فأصاب رؤساءهم لذلك رحمة وأذنوا فى الناس بالخروج ، وابتلع بعضهم فى خروجه ماكان له من ذهب أو جوهر ضنة به ، وشعر بهم الروم فكانوا يقتلونهم ويشقون عنها بطونهم ، وشاع ذلك فى ترابع العسكر من العرب والأرمن ، فطردهم طيطوش ، وطمع الروم فى فتح المدينة ، وزحفوا إلى سورها الثالث بالآلات ، ولم يكن لليهود طاقة بدفعها وإحراقها فثلموا السور وبنى اليهود خلف الثلمة فأصبحت منسدة ، وصدمها الروم بالكبش فسقطت واستاتوا فى تلك الحال إلى الليل ، ثم بيت الروم المدينة وملكوا الأسوار عليهم وقاتلوهم من الغد فانهزموا إلى المسجد وقاتلوا فى الحصن ، واتصلت الحرب أياماً حتى هدمت الأسوار كلها حتى سور الهيكل ، وأحاط العسكر بالمدينة حتى مات أكثرهم وفر كثير ، وانقرضت دولة اليهود أجمع)[٢] « وزالت اليهودية كدولة سياسية من الوجود وأصبح اليهود منذ ذلك الحين شعباً بدون وطن »[٣]

والواقع أن اليهود قد عادوا إلى التجمع من جديد فى أورشليم وتنادوا من مهاجرهم حتى كثروا ، وعزموا على الانتقاض وأعلنوا الثورة فى محاولة أخيرة لاسترداد أورشليم فى سنة ١٣٥ م بقيادة « سيمون باركوخبا » ولكن المحاولة باءت بالفشل الذريع ، وقمعت الثورة بعد مقتلة بشعة[٤] ، قمعها (هادريان) ويسميه ابن خلدون « أندريانوس » . ودمر المدن والقرى التى لاذ بها اليهود ، وقد بلغ عدد

---

(١) تاريخ سورية ص ٤٢٣
(٢) تاريخ ابن خلدون ١٣٨/٢ وما بعدها بتصرف .
(٣) تاريخ سورية ص ٣٧٦
(٤) تاريخ العالم (سقوط أورشليم ص ٦٥٥ ــ ٤ تاريخ سورية ص ٣٧٧)

القتلى خمسمائة وثمانين ألفا ، وعدد القرى التى دمرت تسعمائة وخمساً وثمانين .(١) ونقل بن خلدون عن (هروشيوش) قوله : إن الحرب طالت بينه وبين اليهود ، فخربوا كثيراً من المدن إلى عسقلان ثم إلى مصر والإسكندرية فانهزموا هنا وزحفوا بعدها إلى الكوفة فأثخن فيهم بالقتل وخضد من شوكتهم ، وكان هذا الخراب لثلاث وخمسين سنة من خراب طيطوش الذى هو الجلوة الكبرى(٢) .

ولعل هناك شبه إجماع على أن السبب الأكبر لهجرة اليهود إلى خارج فلسطين يرجع إلى ماحاق بهم من ويلات الحروب ، وتوالى الفتن منذ تخريب بختنصر (٥٨٦ ق.م) إلى تخريب تيطس سنة ٧٠ م لمدينة أورشليم حتى فنوا أوكادوا ، وقد قال قائلهم : (أى شعب يظل على قيد الحياة بعد هذه الآلام الطويلة المتصلة وهذه الطامة الكبرى التى صار إليها أمره؟) إن من بقى منهم حياً كان من هذه الفلول الهاربة أو المهاجرة إلى كل ملجأ لاذوا به ليعيشوا فى ظلال الأمن ، ومن أجل ذلك وجدناهم فى أرض مصر وشمالى الحجاز ، وفى العراق يزاولون نشاطهم فى مجالات العمل المختلفة لايألون جهداً فى جمع المال وتملك الثروات بشتى السبل والحيل ، مع احتفاظهم بخصائص شعبهم تعصباً منهم وتزمتاً ، حتى أصبحوا جماعة مغلقة بكل أرض حلوا بها .

وحيثما استقروا بهذه الحرات الشمالية من أرض الحجاز وجدناهم يتحركون فيها منذ وجدوا بها فى اتجاه المناطق الخصبة ، وقد اشتهروا بالزراعة والتجارة ولذلك داروا مع هذه الحرات حتى بلغوا يثرب وماحولها دون أن يعى التاريخ الصحيح أنهم توغلوا فى الصحراء جنوباً فيما يسمى بالعربية الوسطى غير جماعات قليلة نزل بعضها بمكة ، وحل بعضها بنجران ، وآخرون بالبحرين ، على ما تدل عليه أخبارهم فى الإسلام(٣) ، وربما زاد عددهم قليلا بأرض اليمن ، لأنها كانت الأرض السعيدة منذ عرفوها فيما يقال أيام ملك سليمان ، ومنذ ترددت الرحلات التجارية

---

(١) تاريخ سورية ص ٣٧٧

(٢) تاريخ ابن خلدون ٢/٢٠٢ وما بعدها — وهرشيوش هذا هو المؤرخ الذى قال عنه ابن خلدون انه مؤرخ الروم فى كتابه الذى ترجمه للحكم المستنصر من بنى أمية فى الأندلس قاضى النصارى وترجماتهم بقرطبة ٢/٨٨

(٣) انظر فتوح البلدان ١/٨٧ وما بعدها .

بين الجنوب والشمال فى فصلى الشتاء والصيف ، ولعله طاب لبعضهم المقام فأقاموا مستظلين بحماية الملك الحميرى فى أواخر القرن الخامس ، وكان قد تهود ، فغزت الحبشة بلاده وقضت على دولته (سنة ٢٥ م) بطلب من (جوستنيان) الأمبراطور الرومانى بالقسطنطينية .

تلك لمحة سريعة لتأريخ الوجود اليهودى ببلاد العرب فراراً وهجرة . أو رهباً ورغباً ، قدمتها بين يدى البحث فى موضوع شعراء اليهود فى الجاهلية وصدر الإسلام وفيه نزيد علاقتهم بالجزيرة وأهلها بياناً ووضوحاً .

---

(٢)

شعراء اليهود فى الجاهلية

اطمأن اليهود إلى سكنى الواحات الواقعة فى الشمال الغربى من بلاد الحجاز واختاروا منها أحياها بالخصب والماء ، وأعلاها مكاناً ليشيدوا عليه آطامهم وحصونهم ، حيث كانوا قد ألفوا سكنى مثل هذه الآطام بأرض كنعان منذ احتلوها ، ثم تحولوا فيها من جماعات بدوية إلى مجتمع مستقر ، ولم ينقطع تسللهم منذ الجلوة الكبرى إلى تلك النواحى فى جماعات قليلة وأفراد وجدوا لهم مأوى فى تلك المستوطنات المختارة على طرق القوافل ، والممتازة بالخصب ، والمنقطعة فى الصحراء بعيداً عن أن تنالهم أيدى مضطهديهم من الرومان ، ولعل منطقة تيماء كانت من أول ما ارتادوا فى تلك النواحى لمكانها ، إذ كانت على ما وصفنا ذات حضارة راقية ، وعمران ، وأهمية تجارية خاصة ، فطمعت بعض القبائل اليهودية كبنى هدل قوم السموءل فى أن تتسع لهم لممارسة أنشطتهم المختلفة فى الزراعة والتجارة ، ومن ثم أنشاوا الأسواق لبيع غلات الأرض التى زرعوها ، والسلع التى يشترونها من القوافل ويعيدون بيعها بالثمن الربيح أو بالربا المضاعف مستغلين الظروف وحاجات البدو ، وخاصة عندما يصيبهم القحط ، فيثرون من هذا الطريق ، ويبسطون سلطانهم بقوة المال وسعة الحيلة ، ولم تذهب عن اليهودى صفاته فى ذلك الزمان إلى

الآن من أنه (شخص من الجنس العبرى مقرض أو مراب جشع ، ابتزازى ، أو تاجر يساوم كثيراً ، أو يتعامل بمكر ودهاء)[1]. كما لم تغب عنه تعاليم الكتبة والأحبار فى تشكيل سلوكهم وفق ما تقضى به الظروف والأحوال من غير ثبات أو جمود ، مع استمرار الشعور بتفوقهم ونقاوة عنصرهم ، وأنهم فوق هذا وذاك (شعب الله المختار) ... وقد حرصوا على تلك العقيدة فى البيئات الجديدة ، وعملوا على أن يساكنوا القبائل العربية النازلة حول مواطنهم بالتودد إليهم أول الأمر حتى تثبت أقدامهم ويصير لهم السلطان .

ولم يكن عجباً وهم بسبيل بلوغ هذه الأهداف أن يتطبعوا بما عليه العرب من طباع ، وأن يتظاهروا ببعض القيم والأخلاق التى درج عليها العربى فى مجتمعه بحكم البيئة من كرم وإباء ووفاء ، وأن يلبسوا مثلهم ، ويتكلموا لغتهم ، ويحالفوهم ، ويتخذوا منهم الأولياء والأنصار ، ثم تقوى الصلات بينهم عن طريق الجوار ، أو عن طريق التعامل وتبادل المنافع والاتجار ، أو عن طريق استخدامهم العرب كأيد عاملة ، حتى تهود بعضهم ، وتم التصاهر بينهم فى صورة زواج منفعة كان من ثمرته وجود طائفة من العرب المتهودين يقفون وراء أسوار الحصون ، وحول المزارع والمتاجر حراساً يدفعون عن القوم وأموالهم غارات الأعراب أيام الفتن والنجاعات ، بينما ظل العرب الوثنيون — وهم الكثرة — على دين الآباء والأجداد لا تستهويهم مظاهر التفوق والغنى عند اليهود .

وكذلك ذهب اليهود شوطاً آخر فى سياسة الاندماج فتسموا بأسماء عربية دون حرص ظاهر على الأسماء الموروثة ، وصار من أسمائهم : كنانة ، والربيع ، وكعب ، وزيد ، ووهب ، ونافع[2] الخ ، وقلما وجد من تسمى منهم بأسماء عبرية مثل : فنحاص (بنحاس) ، وزعورا ، وعازر ، وشمويل ، ويهوذا ، وبرهام (إبرهام) ، ضماناً للمعايشة فى أمن ، وإحكاماً لسياسة التقرب والاندماج .

ومن أجل ذلك نعم اليهود فى مهاجرهم الجديد بالحرية ، وخاصة فى الأرض التى استبدوا بها ، وتكاثروا بالأموال والأولاد حتى لا يطمع فيهم طامع ، وأنسوا

---

(١) تعريف اليهود فى قاموس اكسفورد ونقله « الأهرام » بتاريخ ٧٣/٦/١٢ نقلا عن وكالة أ ــ ب .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٥١٤/١ وما بعدها .

إلى الحياة فى نظام المستعمرات أو الأحياء المنعزلة أو (حارات اليهود) انقطاعاً عن المخالطة المفضيه إلى الانصهار ، أو خوفاً متوقعاً لأى سبب من الأسباب ، فقد كانوا يعانون من (عقدة الاضطهاد) على مدى الأجيال . . .

والأصل أنهم كانوا حريصين على نقاوة ذلك « الدم الأزرق » الذى يجرى فى عروقهم إلا أن تضطرهم ضرورة من ضرورات الحياة ، ومن ثم راحوا يمارسون حياتهم على النحو الذى يريدون دنيا وديناً . فكما أقاموا أسواقهم للبيع والشراء والرهن والتعامل بالربا ، ترددوا أيضاً على الأسواق العربية فى وسط شبه الجزيرة وأطرافها ، وهذا هو السبب فى وجود بعضهم فى أماكن مثل مكة والطائف ونجران والبحرين . وأقاموا دور العبادة فكان لهم الكنيس والمدراس وهو بيت مدارستهم للتوراة . وتباحثوا فى أمور دينهم ، وكان منهم جماعات الربانيين والأحبار أهل النظر والجدل ، وإن لم يكن لهم أثر واضح فى نشر دينهم والدعوة إليه إيماناً بالسياسة التى أشرنا إليها ، وبالتقاليد الدينية التى كان المفسرون المتعصبون يبثونها فيهم من قديم حتى شاع فيهم من اعتقد بأن لشعبهم خصائص لا يشاركهم فيها شعب ، ولا أصحاب دين آخر ، ومن هنا جاء احتقارهم لغيرهم من الناس ، واضطهاد الناس لهم ، فأووا إلى حصونهم خوفاً ، وإشارة القرآن الكريم للربانيين منهم تدل على أن يهود تلك النواحى كانوا يدينون بالتوراة والمرويات الشفهية التى تضمنتها (المشنا والتلمود والمدراش بكل ما تحتوى من (هلاخا) أى تشريع ، و (هجادا) أى قصص ، إذ كل ذلك مندمج فى التوراة اندماجاً عضوياً[1]. يقول الله تعالى : (لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون)[2] وفى هذا رد على من زعم بأنهم لم يحافظوا على الشرائع الموسوية ، ولم يخضعوا لأحكام التلمود[3] .

وكما كان النظام القبلى هو السائد فى المجتمع العربى سواء فى البادية أو الحاضرة - ساد نظام الأسرة أيضاً فى المجتمع اليهودى وعرف من قبائل بنى إسرائيل : بنو النضير وبنو قريظة ، وبنو قينقاع ، وبنو هدل ، وبنو ثعلبة ، إلى آخر هذه القبائل

(١) الفكر الدينى الاسرائيلى ص ٢٥٢
(٢) سورة المائدة الآية ٦٧
(٣) انظر ما ذكره اسرائيل ولفنسون فى كتابه تاريخ اليهود ص ١٣٥ نقلا عن المؤرخ اليهودى الألمانى جريتس .

التى يجمعها لفظ « الشعب » على مثال ما كانوا يقرءون فى التوراة (لأنك شعب مقدس للرب إلهك ، وقد اختارك الرب له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض) ، كما وصفهم الرب بأنهم (شعب صلب الرقبة) ، ومع أنهم كانوا كذلك فقد آثروا السلامة من أجل تحقيق المنافع دون اللجوء إلى الحرب والقتال ، ورغبوا فى التقية حتى لا يصيبهم ما أصاب آباءهم « بأرض المعاد » من قتل وسبى وتشريد ، وبذلك أصبحوا بحق أحرص الناس على حياة ، ولو أدى ذلك إلى دفع الإتاوة ، واستعمال أساليب التفرقة والخداع ، والإيقاع بين الناس بإثارة البغضاء ؛ وإيقاد نيران الحروب بين القبائل من أولى البأس الشديد حتى تتفانى أو تضعف فتفتر ثورتها عليهم ، ويتضاءل سلطانها أو مضايقتها لهم .

وسوف نرى صوراً من مظاهر الصراع ، « وجوار الثعالب » ؛ والتنافر ، واستعمال أساليب الغدر والكيد مما كشفت عنه علاقتهم بالأوس والخزرج ، وقريش وغطفان وغيرهم فى الجاهلية والإسلام . وكانت النتيجة أن أفلح اليهودى فى معايشة عرب الصحراء ، ووجدناه يتنازل عن كثير مما ورثه عن الأسلاف فى البيئات المتحضرة التى عاشوا فيها قبل الهجرة إلى تلك الديار ، ويستغل قدراته فى صناعة ما يحتاج إليه البدوى ، ويبدو ماهراً فى فنون الزراعة والصياغة ، وممتازاً فى الكتابة والحساب ، ومتعلماً لغة القوم إلى درجة الإتقان على مثال ما نجده فى عصر متأخر عن ذلك العصر (أيام دولة بنى العباس) حيث أتقن الفرس لغة العرب وأدبهم وصاروا أعلاماً فيها وأئمة . فلا غرابة أن نرى اليهودى يحاول أن يكون شاعراً يتكلم بلغة العرب ، وينظم بها الشعر ، وينهج سبيلهم فى التفكير والتصوير ، ويتحدث بمثل حديثهم عن معانى الفخر والرثاء والهجاء والنسيب . يفعل ذلك امعاناً فى التكيف والتودد والمجانسة ليأمن من خوف ، ويعز من بعد ذل .

نقول هذا ونحن مقبلون على درس الشعر المأثور عنهم أو المنسوب إليهم لنرى الرأى فى موضوعاته ، ونقف على أساليب التقليد والتجديد فيه ، ونعلم مبلغ حظه من الإجادة والصدق والجمال ، مع أن التاريخ الأدبى لم يع من أخبار الشعراء اليهود فى الجاهلية والإسلام إلا القليل ، وقد ترجع قلتهم إلى فقدان الروح الشاعرة فيهم وغلبة النزعة المادية عليهم ، كما ترجع قلة شعرهم إلى ضعف الباعث

القوى ؛ وفتور التأثر بالوقائع ، إذ كانوا ينأون عن خوض الحروب التى تعتبر من أقوى الدوافع على الإنشاد عند العربى ، وكثيراً ما احتدم الصراع بين الأوس والخزرج ، وتفاخر الشعراء وتهاجوا وثاروا وأثاروا حتى كثر شعرهم إبان هذا الصراع وبعده . دون أن نحس أثراً بارزاً لشعراء اليهود وقد كانوا حلفاء لكل منهما ، ولم يؤثر عنهم غير شعر فى الحماسة والفخر ورثاء صرعاهم فى الفتن والمكايد التى كيدت لهم ؛ والبكاء على من قتل من حلفائهم والهجاء الذى ضاع أكثره ، والغزل التقليدى المأثور فى مطالع القصائد . وقد نلمح مع قلة هذا الشعر اهتماماً بروايته فى قول الجاحظ : (وقد أدركت رواة المسجديين والمربديين : ومن لم يرو أشعار المجانين ، ولصوص الأعراب ، ونسيب الأعراب ، والأرجاز العربية القصار ، وأشعار اليهود ، والأشعار المنصفة فإنهم كانوا لا يعدونه من الرواة [1] .

وهذا الرأى كاف فى الدلالة على اهتمام الرواة بالشعر المنسوب إلى اليهود منذ عصر الجاحظ ، إذ كانوا يعدونه فى مرتبة الأشعار المنصفة وغيرها من ألوان الشعر التى حظيت بإعجابهم مثل شعر المجانين ونسيب الأعراب وشعر الصعاليك . وليس يطعن فى شعر اليهود ما أثاره بعض النقاد حوله كله أو بعضه من ملاحظات ترفضه ، أو تدعو إلى الحذر والاحتياط فى روايته . وسوف نسلك طريقاً مأمونة العثار فى دراسة هذا الشعر فنقف عندما روى عن الثقات أولا من أمثال الأصمعى وابن سلام ، ثم ما ترددت روايته فى أكثر من مصدر من مصادر التراث الأدبى كالحماسة لأبى تمام والبيان والتبيين للجاحظ وحماسة البحترى وعيون الأخبار والأغانى والأمالى .. الخ .

فاذا بلغنا عصر الإسلام ، وكثير من شعرائهم الجاهليين أدركوه ولم يسلموا — عكفنا على درس شعرهم الذى قيل بصدد الحوادث والوقائع التى ألمت بهم فيه ، ويعتبر شعرهم هذا الذى قيل فى زمن البعثة منبت الصلة فى موضوعه عن الشعر الذى قيل فى الجاهلية ، بسبب تغير الظروف واختلاف المناسبات ، وإن كان ممتد الصلة بالدوافع الأصيلة ، أو الكامنة التى دفعتهم إلى قول هذا الشعر ، وتقليد

---

(١) البيان والتبيين ٣/٣٢٢

العرب فيه ، متأثرين بالبيئة التي عاشوا فيها طويلا : والمجتمع الذى كانوا فيه جماعة لها طباعها ومميزاتها وسائر خصائصها التى حرصوا أن تكون لهم من دون غيرهم من الناس .

ولعل أبرز هذه الخصائص استشعار هؤلاء اليهود بأنهم أشد حرصاً على الاستمرار متكتلين فى جماعات قليلة ، فتتجمع كل أسرة أو قبيلة داخل قرى محصنة ، مسورة بأسوار ، خوفاً من غزو الأعراب ، والتماساً للأمن فى جميع الظروف واتباعاً لنظام الحياة الذى ساروا عليه منذ كانوا بأرض فلسطين يتخطفهم الأعداء أو يبغون بهم شراً ، وقد رأوا فى هؤلاء الذين كانوا ينازلونهم تلك الحرات من عرب الجزيرة خطراً يهدد كيانهم ، وتتقلب بهم الأحوال وخاصة فى يثرب وما حولها ، وتظهر أولى الدوافع الحقيقية لقول الشعر إذ تتجلى فيه روح المدافعة والتحصن أيضاً بالكلام ، فكان الفخر هو الغالب على أغراض شعرهم يحاولون به إظهار التجلد ، وبث الرعب فى قلوب الناس الذين يظنونهم أعداء أو يتوقعون عداوتهم على مرور الأيام ، كما أرادوا به أن يحتاطوا بسياج من الدعاية التى تبقى عليهم الشعور بأنهم صنف ممتاز عقيدة وتفكيراً وسلوكاً وغنى وسطوة ، وهذا سر تعلقهم بالفخر وحده فى معظم هذا المأثور من الشعر ، والاحصاء يدل على أن السموأل قد فخر بنفسه فى أبياته التى أولها فى رواية ابن سلام[1] :

إن حلمى إذا تغيب عنى فاعلمى أننى عظيمـــاً رزيت

وفى أبياته التى أولها :

وفيت بأدرع الكندى إنى إذا ما ذم أقوام وفيت[2]

كما فخر بقومه فى أبياته المشهورة النسبة إليه ، وأولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤام عرضه فكل رداء يرتديه جميل

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٢٣٦ ، وهى من الأصمعية ٢٠ مع زيادة واختلاف لفظى يسير .
(٢) الأغانى ١١١/٢٢ ط بيروت .

وقد روى بعضها الجاحظ فى بيانه[١] ، وأبو الفرج فى أغانيه[٢] كما رويت كاملة فى الحماسة والأمالى[٣] :

فاذا انتقلنا إلى تتبع ما لأخيه سعية من شعر ، وجدناه هو الآخر فخوراً بنفسه فى أبياته التى رواها الأصمعى وأولها :

ألا إنى بليت وقد بقيت وإنى لن أعود كما غنيت[٤]

بل أنه يفخر بنفسه فى أبياته التى يرثى فيها نفسه وأولها :

ياليت شعرى حين أندب هالكاً ماذا ترثينى به أنواحى[٥]

وكذلك فعل أبوقيس بن رفاعة فافتخر بنفسه فى قوله من أبيات أولها :

وذى ضغن كففت النفس عنه وكنت — على مسأته — مقيت[٦]

بعد أبيات غزلة .

واعتد بنفسه كذلك درهم بن يزيد وتباهى بزعامته لقومه فى أبياته التى أولها :

لعمر أبيك الذى لا هيـــــ ـــــن إنى لأعطى وأستفتح[٧]

بعد بيتين فى النسيب .

فاذا تجاوزنا عصر هؤلاء إلى الشعراء الذين شهدوا الأحداث الإسلامية الكبرى فى يثرب وما فوقها ،وقد علمنا أنهم كانوا من المخضرمين الذين أدركوا الإسلام ولم يسلموا ،وتأثروا بالتقاليد الأدبية ، وأغراض الشعر الملائمة لهم وجدنا فى مقدمتهم الشاعر اليهودى الربيع بن أبى الحقيق النضرى الذى افتخر بقومه فى أبياته التى أولها :

سائل بنا خابر أكفائنـــــا والعلم قد يلفى لدى السائل[٨]

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٨٥ ، ٤/٦٨
(٢) الأغانى ٦/٧٩
(٣) الحماسة ج ١/٤٩ ، والامالى ١/٢٦٩
(٤) الأصمعية ٢٢
(٥) طبقات ابن سلام ص ٣٤٠ والأغانى ٣/١٩
(٦) طبقات ابن سلام ص ٢٤٢
(٧) طبقات ابن سلام ص ٢٤٧
(٨) طبقات ابن سلام ص ٢٣٧ — ونسبها صاحب الاغانى لسعية مع زيادة

ومنهم اليهودى المتعصب كعب بن الأشرف ، صاحب النقائض مع حسان وغيره فى الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج ، وقد أثر عنه فخره بخاله وبأموال قومه فى قوله من أبيات أولها :

رب خال لى لو أبصرتـــــه سبط المشية أباء أنـــــف (١)

وهم فى هذا الفخر مدفوعون — كما قلنا — بالرغبة فى الحياة آمنين ، وكان إعجابهم بالنفس والإفراط فى الثقة بها لأنهم توقعوا الشر وتوجسوا من كل أولى بأس خيفة ، فتمجدوا ، وأمعنوا فى اعتبار ذواتهم رغبة فى استشعار الطمأنينة ، واعتقدوا أن ذلك سبيل للإبقاء على كيانهم الاقتصادى والاحتفاظ بتفوقهم ونقاوة عنصرهم ، فليخيفوا بالكلام .

وإذا كانت « عقدة الاضطهاد » تملأ نفوسهم فليكن الفخر العريض أسلوباً من أساليب الدفاع عن النفس والمال والدين ، ثم إنهم قلدوا العرب فيما تمدحوا به من مكارم الأخلاق وجميل الآثار فى الشجاعة والكرم والنجدة والوفاء إلى آخر ما افتخر به العربى مما أوحت به طبيعة الحياة فى الصحراء القاحلة المترامية الأطراف .

وقد اشتهرت قصيدة السموأل اللامية فى الفخر بين ما صح له من شعر ، وعندما تداولها الرواة كان يعجبهم منها قوله :

تعيرنا أنا قليـــل عديدنـــا فقلت لها إن الكرامَ قليـــل
وما قل من كانت بقاياه مثلنـــا شباب تسامى للعلى وكهـــول
وما ضرنا أنا قليـــل وجارنـا عزيز ، وجار الأكثرين ذليـل
وإنا لقوم ما نرى القتـل سـبة إذا ما رأته عامـر وســـلول
يقرب حب الموت آجالنا لنـا وتكرهـه آجالهـــم فتطول
وما مات منـا ميت فى فراشـه ولا طل منا حيث كان قتيـل
تسيل على حد الظبات نفوســنا وليست على غير السيوف تسـيل

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٣٧ والأغانى ١٢٥/٢٢ ومعجم البلدان م٥/١٢٨

فنحن كماء المزن ما فى نصابنا كهام ، ولا فينا يعد بخيل
وأسيافنا فى كل شرق ومغرب بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها فتغمد حتى يستباح قبيل
سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم وليس سواء عالم وجهول

ثم زيد عليها ما طعن فيها ، وجرح نسبتها كلها إليه إلا أن أكثر الرواة على رواية ما ذكرناه(١) .

وأبرز ما نلمحه فى هذا الشعر دفاعه عن قلة عدد قومه فى الأبيات الثلاثة الأولى بينما العربى يفخر دائماً بالكثرة والنسل الذى يملأ أطباق الأرض ليكونوا أعز نفراً، وأقوى عصبية كقول المرقش الأكبر :

ولنحن أكثرها إذا عد الحصى ولنا فواضلها ومجد لواتها(٢)

وقول أنيف بن زبان :

أبى لهم أن يعرفوا الضيم أنهم بنو ناقتى كانت كثيراً عيالها(٣)

وقول عبد الله بن رواحة :

إذا ندعى لثأر أو لجار فنحن الأكثرون بها عديداً(٤)

والشواهد كثيرة ، إلا أن السموءل يبرر لقلة العدد بأن الكرام قليل ، وقد صار هذا القول أشبه بالأمثال ، ثم مضى يفخر فخراً تقليدياً على نحو ما يظهر فى سائر الأبيات ، وأبرز ما فى هذا الشعر من تقليد قوله :

يقرب حب الموت آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول

وإلا فمن أين يأتى اليهودى حب الموت، وهم أحرص الناس على حياة، ومن أجل ذلك طبقوا ما قيل من أن « أكثر الناس قتلا هو الذى يبقى حياً »(٥) ، وكذلك

---

(١) انظر مصادرها فيما سبق ص ٢١ من هذا البحث عدا الديوان ط بيروت .
(٢) المفضلية ٥١
(٣) شرح الحماسة ١٦٧/١
(٤) جمهرة أشعار العرب ص ١٢٢
(٥) قصة الحضارة ٣٢٧/٢ (الشرق الأدنى) .

كانوا يفعلون أيام تمكنهم فى الأرض واستبدادهم بالأمر ، واستقلالهم بمصـــادر الثروة ، فأكرهوا الناس حتى يكونوا خاضعين لهم بالقتل والتنكيل من يوم استولوا على أرض فلسطين فى عهد « يشوع بن نون » إلى سائر عهود القوة والبطش .

وآية حرص السمؤل على الحياة تغنيه مفتخراً بالحصن الذى كان يؤويه فى أبياته والتى تمدح فيها بوفائه بأدرع امرئ القيس إذ يقول :

وفيت بأدرع الكنـــدى إنى ... إذا ماذم أقـــوام وفيت
وأوصى عادياً يومـــاً بأن لا ... تهـــدم ياسموءل ما بنيت
بنى لى عادياً حصناً حصينـــاً ... وماء كلما شئت اســتقيت[1]

وليس كالحصن والماء — فى نظرهم — ما هو أحفظ للحياة .

على أن قصة هذا الوفاء — وإن كانت مشهورة — إلا أنها اتهمت بالتزوير والتزيد ، وإذا استبعدنا منها عنصر المبالغة ، وبقى أصلها ، صارت مقبولة وبذلك لا نسلب الرجل صفة الوفاء ، وهو الذى تنسبه بعض الروايات إلى « غسان » قوم أمه ، وكان المبرد يسميه (الغسانى)[2] ، ومن وراء ذلك : إنه إنسان ، ولعله جرى فى ذلك مخالفاً عن حال قومه ومذهب أبناء جلدته ، وهو الذى استعان به امرؤ القيس ، لمقامه من غسان ، فى أن يكونوا له عوناً لدى قيصر . ولا تصرفنا سهولة هذا الشعر وغيره عن روايته ، والثقة فيه ، فكم من شعر تميز بإشراق البيان روى لكثير من شعراء الجاهلية عندما يتفجر ينبوع الشعر من النفس سلسلا لا يعكر صفوه حوشى الكلام ولا غريب الألفاظ ، أو التكلف الذى يذهب بمائه . . ثم إن هناك فرقاً بين ما يصدر عن شاعر متأبد فى القفر ، وآخر مقيم بقرية ذات نخل وزرع ومياه ، ولها تاريخ حضارى ، وإشعاع روحى فيما قيل من أنها كانت (من المراكز التى يشيع منها التأثيرات التوحيدية التى كانت

---

(١) الأغانى ١١١/٢٢ ط . بيروت — وفى الكامل فى التاريخ (٣٠٨/١) قال : ويوجد بتيماء بئران عظيمتان يقال لاحداهما هداج وللأخرى وداج احداهما بظاهر تيماء والاخرى داخلها وكانت عظيمة .

(٢) الكامل جـ ١ ص ٩٠

تظهر في المحيط العربي(١) ، كما كانت تعد «تيماء» من أمهات القرى في صحراء النفود .

وفي فخر الشاعر اليهودي بنفسه تعبير عن ذاته وعن جماعته لأنه أقوى صلة بها من العربي في قبيلته ، ثم يبقى القول بعد ذلك تقليداً متبعاً للأنماط العربية في تلك المعاني التي تناولها الفخر بالنفس في قول أبي قيس بن رفاعة ، بعد مقدمة غزلية :

وذي ضغن كففت النفس عنه — وكنت — على مساءته — مقيت
وسيفي صارم لا عيب فيه — ويمنعني من الرهق النبيت
متى ما يأت يوم ، لا تجدني — بمالي حين أتركه شقيت
ألين لهم وأفديهم بنفسي — مقارشة الرماح إذا لقيت
وأرهن في الحوادث كف بكري — لجاري في العظيمة إن دهيت
أراه — ما أقام — على حقاً — شريكي في بلادي ما بقيت(٢)

فتقليم أظفار ذوي الأضغان بالحلم من معاني العرب المتداولة ، والكف عن الشر مع القدرة والتسامح كذلك ، وهكذا سائر المعاني ، إلا أننا نقف قليلا عند قوله :

وأرهن في الحوادث كف بكري — لجاري في العظيمة إن دهيت

فرهن الولد البكر — مع ملاحظة التعبير بالرهن — شبيه بالتضحية بالولد من أجل الوفاء بأدرع الكندي في قصة وفاء السموءل ، وتمتد إلى القصة الدينية في التضحية بولد ابراهيم — عليهما السلام — وقد صدق ابراهيم رؤيا ذبحه إياه ، وقد ذكرت في القرآن كما ذكرت في التوراة .

ثم نعلم أن الشاعر دل على قومه (النبيت) وإذا كان كذلك فهو — إذاً — عربي من الأوس تهود . ولهذا دلالته على ملامح صبغة عربية ، لها مذاق خاص ، تبدو في أساليبه وصوره ومعانيه . .

---

(١) تاريخ الأدب العربي لبلاشير ص ٦٢

(٢) طبقات ابن سلام ص ٢٤٢ والمقيت : القادر على الاساءة — والرهق : الحمق والجهل — والنبيت : هم الأوس — ومقارشة الرماح : اصطكاك بعضها ببعض عن التطاعن — والبكر : أول الاولاد وأكبرهم ذكرا كان أو أنثى — العظيمة : الداهية .

ويفخر بنفسه أيضاً درهم بن يزيد ، وهو أوسي متهود(١) كذلك ، فيقول وقد وصل بين غزله الموجز وفخره :

هجرت الرباب وجاراتهـــا	وهمك بالشوق قد يطـــرح
يمانيـــة نازح دارهـــا	تقيم بغمـــدان لا تـــبرح
لعمر أبيك الذى لا أهيـــ	ـــن إنى لأعطى وأستفتـــح
وأدلج بالقـوم شطر المليـــو	ك حتى إذا خفـق الجـــدح
أمرت صحـــابى لكى يبزلوا	فناموا قليلا وقـد أصبحـــوا
أجـدوا سراعاً فأفضى بهـــم	سراب بدويـــة أفيـــح

وهنا لا فرق بين شعره وشعر أى عربى وثنى صليبة ، إذ يفخر لصاحبه الرباب اليمنية المقيمة بقصر غمدان لا تريم ، ويقسم لها بحياة أبيها تحترم إنه يخشى بأسه فيعطى ، بل إنه يستنصر به لشجاعته ، ولأنه زعيم قومه عند الوفادة إلى الملوك واصلا سير الليل بالنهار إلا نوماً قليلا فى الصباح ، لأخذ عطاياهم بعد أن يكونوا قد اجتازوا المفاوز فى خفة حتى جميت الشمس وانتهى بهم السراب إلى فضاء رحب دون أن ينال منهم الجد والإسراع .

فهو فخر بالشجاعة وقرة البأس وركوب المخاطر وريادة القوم ، وكلها معان مكرورة ، وليس فى الأبيات ما يدل على يهوديته المكتسبة ، فربما ألجأته إليها كما ألجأت غيره الظروف والملابسات ، ومع ذلك بقيت له سماته العربية الواضحة . كما غلبت عروبة أبى الذيال البلوى وسليقته على يهودته المجتلبة ، إذ هو من قبيلة « بلى » ، وكانت منازلها على مقربة من (تماء) وعرف أن فرعاً من تلك القبيلة ينسب إلى حشنة بن عكارمة رهط أبى الذيال كان قد تهود ، عندما لجئوا إلى يهود تيماء عائذين بهم بعد أن قتلوا ناساً من أبناء عمومتهم ، ولما أبى اليهود أن يدخلوهم حصونهم تهودوا ، وصاروا معهم بعد أن وثقوا فيهم ، وتبدو شاعرية أبى الذيال وهو يتغنى بشبابه ، ويعلن عن الإعجاب بنفسه فى معرض الحماسة والفخر ، سالكاً سبيل القدماء فى التعبير عن صرف الهمة فى تحصيل اللذة قبل فناء العمر ، غير مبالين بلوم اللائمات فى شرب الخمر والاستمتاع بالنساء ، والإنفاق عن سعة فى

---

(١) انظر الاغانى ٣/٤٠

وجوه اللذات . صادرين فى ذلك عن إحساس بحب الحياة ، والرغبة فى اقتناص لذاتها قبل الفوت ، وذلك فى قول أبى الذيال بعد مقدمة غزلية :

دع ذا ، ولكن رب عاذلـــة ... لو علمت ما أريد لم تعـــد
هبت بليل تلوم فى شرب الـــ ... خمر وذكر الكواعب الخـــرد
فقلت مهلا ، فلا عليك إن امـــ ... سيت غوياً ، غيى ولا رشـــدى
إنى لمستيقن لئن لم أمـــت ... م اليوم إنى إذن رهـين غـــد
هل نحن إلا كمن تقدمنـــا ... منا ، ومن تم ظمؤه يــــرد
نحن كمن قد مضى ، وما إن أرى ... شحاً يزيد الحريص من عـــدد
فلا تلومنى عــــلى خلقى ... واقنى حياء الكريم واقتصدى[١]

وشعره هذا يذكرنا بقول طرفه المشهور ،وفيه نستشعر روحاًعربية تعتزبفروسيتها وتمتلىء إحساساً بالشباب ، وحرصاً على تحصيل لذات النفس . . ولا يدانيه قول السموأل فى مثل سياقه ، ومعرض الإعجاب بنفسه :

أعاذلتى ألا لا تعذليـــنى ... فكم من أمر عاذلة عصـــيت
دعينى وارشدى إن كنت أغوى ... ولا تغوى — زعمت — كما غويت
أعاذل قد أطلت اللوم حـتى ... لو انى منته لقـد انتهــيت
وحـتى او يكـون فتى أناس ... بكى من عذل عاذلة بكـيت
وصفراء المعاصم قـد دعتنى ... إلى وصـل فقلت لها : أبيت
وزق قد جررت إلى النـــداى ... وزق قد شربت وقد سقيت[٢]

فهو يعلن عن توبته ، وانتهائه عن طريقته ، وبكائه من لوم اللائمات وصحوة قلبه عن الجميلات البيض العطرات ، وهو نادم على تلك الأيام التى قضاها فى مجلس

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٤٤ ، والأغانى ١١٨/٢٢ — والخرد جمع خريدة : وهى البكر الحيية — والظمء هو حبس الابل الى يوم وردها يومين وثلاثة وأكثر فان حان موعد وردها أوردها صاحبها ، وتمام الظمء هو استيفاء أيام حبسها عن الماء فهى لا تصبر على الظما حتى تشرب والمراد ان من حان أجله فلا محالة منه .
(٢) الأغانى ١٠٨/٢٢

الخمر يسحب إلى الندامى زقا ، ويشرب زقاً ، وهو مع ذلك يسترجع ذكريات شبابه ويخالطه شعور بالفخر ، واعجاب بزهرة العمر فيما يدل عليه البيتانا لأولان

وإذا انتقلنا إلى شاعر آخر يهودى صليبه ، هو سعيه أخو السموأل وجدناه قد ذهب فى الفخر بنفسه على طريقته الخاصة فى التفكير والسلوك عندما يقول :

ألا إنى بليت وقد بقيت ... وإن لن أعود كما غنيت
إذا ما يهتدى حلمى كفانى ... وأسأل ذا البيان إذا عييت
ولا ألحى على الحدثان قومى ... على الحدثان ما تبنى البيوت
أياسر معشرى فى كل أمر ... بايسر ما رأيت وما أريت
ودارى فى محلهم ونصرى ... إذا نزل الألد المستميت
وأجتنب المقاذع حيث كانت ... وأترك ما هويت لما خشيت (١)

فهو لا يلوم قومه على ما يحدثونه إذ هم أقوياء ، ولا يلوم من يروم العز ، ويصون البيت ، وإنه لهذا يياسرهم فى كل حال ، ويعينهم جهده ، أليس واحداً منهم وبيته فى حمى بيوتهم ، فلزمه أن ينصرهم إذا اعتدى عليهم خصم يذهب فى خصومته كل مذهب ، وفى البيت الأخير نلمح أثر اليهودية وخاصة المصراع الأخير (وأترك ما هويت لما خشيت) . أما اجتناب المقاذع ، والعفة عن الكلمة العوراء فكثيراً ما تمدح به شعراء العرب.

وأشبه بشعر سعية شعر أخيه السموأل فى فخره بنفسه إذ يقول :

إن حلمى إذا تغيب عنى ... فاعلمى أننى عظيماً رزيت
ضيق الصدر بالخيانة لا ينـ ... ـقض فقرى أمانتى ما بقيت
رب شتم سمعته فتصاممـ ... ـت ، وغى تركته فكفيت

فالحديث عن غيبة الحلم ، واجتناب هجر الكلام قد لهجا به وأضاف السموءل معنى الوفاء ليؤكد ما اتصف به وشاع عنه حتى قيل : أوفى من السموءل . .
ثم ماذا ؟ أرأيت إلى تكرار قافية التاء فى شعر اليهود ؟ إن ما مر بنا قد غلبت عليه

---

(٢) الأصمعية ٢٢ — والحدثان : حوادث الدهر — أيا سر معشرى : أعينهم جهدى .

تلك القافية ، وإننى أستشعر فيها — على الرغم من الفخر والحماسة — تماوتهم وتهافتهم وكأنى بهم ينطوون على الذلة والمسكنة بسبب ما صنعت بهم الليالى والأيام .

فاذا تجاوزنا ذلك إلى شعر شاعر منهم أدرك الجاهلية هو الربيع بن أبى الحقيق الذى شهد له النابغة بأنه أشعر الناس — فيما روى صاحب الأغانى [١] — وجدنا من شعره فى الجاهلية — وقد أدرك الإسلام — قوله مفتخراً بقومه :

سائل بنا خابر أكفائنـــــــا ... والعلم قد يلفى لدى الســـــائل
إنا إذا مالت دواعى الهـــوى ... وأنصت السامع للقـــــائل
واعتلج القـــوم بألبابهـــــم ... نقضى بحـــكم عادل فاصـــل
لانجعـــل الباطـــل حقـــاً ولا ... نلط دون الحق بالباطـــل [٢]
نخاف أن تسفه أحلامنــــــا ... فنخمل الدهـــر مع الخامـــل

وقد روى ابن سلام هذه الأبيات للربيع بن أبى الحقيق ، ورواها صاحب الأغانى لسعيه[٣]، ولعلك معى فى أن الثقة بما يرويه ابن سلام أتم وأقوى ، وفى الأبيات فخر من يستعلى بدينه فى قوله :

إنا إذا نحـــكم فى ديننـــــا ... نرضى بحكم العادل الفاصـــل

وفيها اعتزاز من يسترشد بالعقل عند تصارع الأهواء ، ومن يحكم بالعدل إذا ارتضى الناس منهم حكم دينهم ، ومن يثبت على الحق لا يعدوه ولا يبدله ، ومن يخشى أن يتهم بالسفه فيخمل ذكره مع الخاملين ، وكأنه يعرض بالأزد الذين ظلوا دهرهم قبل الإسلام يتنابذون بالخلاف ، ويحتكمون فى طيش إلى السيوف ، ولابد أنه كان لليهود ضلع فيما كان ينشب بينهم من صراع ، ومن ثم أووا إلى محالفة الأقوياء ، عندما وقفت بنو قريظة وبنو النضير إلى جوار الأوس ، وظاهرت بنوقينقاع الخزرج فى حروب « فارع » « والرعل » « وبعاث » ، وكان اختلافهم فى مظاهرة هؤلاء وهؤلاء بسبب ما كانوا يبتغون من عرض الدنيا — كما قال ابن هشام [٤] — وكان ذلك مما حز فى نفس الربيع بن أبى الحقيق الذى أبدى سخطه

(١) الأغانى ٢٢/١٢١
(٢) لا نلط دون الحق بالباطل : اى لا نلزم الباطل .
(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٣٧ ، والأغانى ٢٢/١١٤
(٤) سيرة ابن هشام ١/٥٤٠

على ما كان يقع بين أبناء دينه من خلاف وتعارض فى تحصيل المنافع وكان مما قال فى ذلك :

سئمت وأمسيت رهن الفـــرا ... ش من جرم قوم ومن مغـــرم
ومن سفه الرأى بعـــد النهى ... ورمت الرشاد فلم يفهـــم
فلو أن قومى أطاعـــوا الحلـــ ... ـم ولم يتعد ولم يظـــلم
ولكن قومى أطـــاعوا السفيـــ ... ـه حتى تعكظ أهل الـــدم (١)
فأودى السفيه برأى الحلـــ ... ـيم فانتشر الأمر لم يـــبرم (٢)

وتلك حال تناقض الحال الأولى التى افتخر فيها بالرشاد والعقل والعدل والثبات على الحق ، كما تنبىء عن تبدل ظاهر فيما كان لليهود من سلطان ، وخاصة بعد أن أوقع بهم (مالك بن العجلان) الخزرجى الذى استنصر عليهم بأبى جبيلة فسار إليهم فى جمع من جنده ، ومكر باليهود فى (ذى حرض) عند أحد ، وكان قد بنى «حائرا» به ، وتصيدهم فيه ، وأفنى منهم من أفنى ، ثم أثخن فيهم «مالك» من بعد ذلك عندما وجدهم لايفتأون يقيمون على معارضتهم ومناوأتهم وكيدهم ، وقد تفسر الحملة على اليهود بسبب ما كانت تسعى إليه الدولة الرومانية من القضاء عليهم ، وملاحقتهم بكل أرض ، وخاصة بعد ما أوقع الملك الحميرى (تبان أسعد) المتهود بنصارى نجران ، ومن ثم صار أمر اليهود إلى الضعف والذلة والخوف حتى (جعلوا كلما هاجمهم أحد من الأوس والخزرج بشىء يكرهونه لم يمش بعضهم إلى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك . ولكن يذهب اليهودى إلى جيرانه الذين هو بين أظهرهم فيقول : إنما نحن جيرانكم ومواليكم ، فكان كل قوم من يهود قد لجئوا إلى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم) (٣) .

ولعل تلك الحال التى صاروا اليها لم تخفف من صلف اليهودى الجموح (كعب ابن الأشرف) وقد عاش فى الجاهلية مناوئا ، وعاش فى الإسلام كذلك فمضى يفخر بخاله الذى تولى تربيته ، ونكاد نحس استعلاءه على العرب واليهود معا لمكانه

---

(١) تعكظ أهل الدم : تحبسوا لينظروا فى أمورهم .
(٢) البيان والتبيين ٣/٣٢٩ والأغانى ٢٢/١٢١
(٣) الأغانى ٢٢/١٠٢ وما بعدها .

من هؤلاء وهؤلاء ، فقد اجتمع له النسب إلى طيْ والنضير ، ولأنه كان فى أخواله سيداً ، وبهم معتزاً ، جاء فخره بخاله نوعا من المقاومة فى وجه العاصفة التى هبت ريحها عليهم ، وكان خيرما فى خاله هذا من الصفات مايلائم تلك الحال ، فهو رائع المنظر ، فيه خيلاء ، وفى مشيته سهولة ومرح ، وفى نفسه إباء وأنفة كأشد مايكون الإباء والحمية ، وهومع ذلك لين الجانب موطأ الأكناف لأقاربه عنيف البطش بالأعداء ، والحق أن كعبا أجاد رسم هذه الصورة على الرغم من تركيزها فى قوله :

رب خـــال لى أبصرتـــــه سبط المشـــية أباء أنف(١)
لين الجـــانب فى أقربـــه وعلى الأعــداء سم كالذعـف(٢)

ثم انتقل إلى الفخر بغناهم جميعا ، وكان الماء الكثير العذب ، والنخيل الوافر المثمر أعظم التمر خيرما يتمولون ، وقد تصور الثمرة كالكف وتخيل صرير البكر عند نزول الدلاء وارتفاعها غناء يصاحبه ضرب بالدفوف وكان فى تخيله وتصوره مجيدا كذلك إذ قال :

ولنا بـــــئر رواء جمـــة من يردها باناء يغترف . . .
تدلج الجـــون على أكنافهـــا بدلاء ذات أمراس صدف . . .
ونخيـــل فى تلاع جمـــــة تخرج التمر كأمثال الأكف . . .
وصرير فى محـــال خلتـــــه آخر الليل أهازيج بدف(٣)

والمعتقد أن عروبته التى جاءته من نسبه فى طيء ، ومناقضاته مع حسان وغيره فى الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج ، كانت من أسباب إجادته . ولكن هيهات هيهات أن تتبدل الحال ، وأن يغير كعب وأمثاله ما استشعره اليهود من

---

(١) سبط المشية : فى مشيته سهولة وتدفق وخيلاء .
(٢) طبقات ابن سلام ص ٤٣٨
(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٣٨ — والأغانى ١٢٥/٢٢ — البئر الرواء الكثيرة المروية العذبة — الجون : الابل السود او البيض . الامراس الصدف : الحبال المفتولة — المحال جمع محالة وهى البكرة العظيمة يدور عليها حبل الدلو التى يستقى بها .

الهوان بعد الذلة ، والضعف بعد القوة ، وقد آذنت شمسهم بالأفول ، ومن ثم وجدناهم يلجئون إلى الرثاء والبكاء ، وفى الرثاء ثناء على من مات ، وتعداد لمآثره وفخر بسجاياه ، وبه يتم استرجاع ذكريات مجده ، واستنهاض الهمم عند من عاش من بعده ، فهم يفخرون أيضاً عندما يرثون ، وإن اختلف الانفعال بسطاً وقبضاً، تفاؤلا وتشاؤما ، فرحاً وترحاً ، إلا أن الحماسة تجمعهما والإعجاب مما يتغنى به الفاخر والرائى الذى لا يقصد شخص المرثى بقدر ما يبكى مأساة الجماعة التى ينتمى إليها ، واللوعة على الغابر الذى قدمات ، والخوف من المجهول المتوقع ، كما نتمثله فى رثاء سارة القرظية لمن قتلهم أبو جبيلة الغسانى إذ تقول :

بنفسى أمـــة لم تغن شـــيئا ... بذى حرض تعفيها الـــرياح
كهول من قريظـــة أتلفتهـــا ... ســيوف الخزرجيـــة والرمـاح
رزينـا والرزية ذات ثقـــل ... يمـــر لأهلها المـــاء القـــراح
ولو أربوا لأمرهم لجـــالت ... هنالك دونهم جأوا رداح[1]

فهى تبكى أمتها التى لم تعد تملك من أمرها شيئاً أوتدفع عنهاما رزئت به،وهى جزعة لأن قومها لم يتدبروا الأمر قبل وقوعه ، ولم يفطنوا لما يبيت لهم ، وقد زعمت أنه كان لهم من القوة والعتاد ما كان يحميهم لو أنهم بصروا بأمرهم ، ولكنه تمنى الغافل الذى لا يستطيع أن يدفع عن نفسه القضاء النازل ، وقد يصور تلك الحال التى صاروا إليها قول الربيع بن أبى الحقيق :

ومن يك غافـــلا لم يلق بؤســـا ... ينخ يوماً بساحته القضـــــاء
تعاوره بنـــات الدهـــر حتى ... تثلمـــه كمـــا ثلم الإنـــاء
وكل شـــديدة نزلت بحـــى ... سيأتى بعـــد شدتها الرخـاء
وبعض خلائق الأقـــوام داء ... كداء الشيخ ليس له دواء[2]

على أمل أن تتبدل الحال إلى ما هو خير ،ولكن بعض خلائق قومه أصبحت تستعصى على العلاج ، فهو يبكى مع الباكين غابر المجد وسوء المنقلب ، ومن ثم

---

(١) الأغانى ١٠٢/٢٢ وما بعدها — وذو حرض هو وادى المدينة عند أحمد والكتيبة الجأواء : الكثيرة الدروع وقد تلونت بلون صدأ الحديد من طول الغزو — ورداح أى ثقيلة عظيمة .
(٢) البيان والتبيين ١٨٦/٣

راحت تعاوده غريزة الخوف مما عساه تصيبهم به بنات الدهر وشدائده ، ومما يمكن أن تحدثه فى نفوسهم من آثار لا تزول ، وكسور لا ترم ، ولكنه حاول جاهداً أن يخفف من وقع هذه الشدائد ، فكل عسر إلى يسر فيما يتوقع من الأحداث .

حتى من رثى منهم نفسه عندما أحس دنو الأجل ، كان بمنزلة من افتخر منهم بنفسه وإن كان الراثى يشيع جواً من الحزن والانقباض والتشاؤم ، غير أنه يلهج بذكر نفسه ويمجدها بطريقة مألوفة فى الفخر كقول سعية بن العريض :

ياليت شعرى حين أندب هالكاً ... ماذا ترثينى به أنواحى
أيقلن : لا تبعد ، فربت كربة ... فرجتها بيسارة وسماح
لا تبعدن فكل حى هالك ... لا بد من تلف ، فبن بفلاح
ومغيرة شعواء يخشى دروءها ... يوماً رددت سلاحها بسلاحى
ولرب مشعلة يشب وقودها ... أطفأت حر رماحها برماحى
وكتيبة أدنيتها لكتيبة ... ومضاغن صبحت شر صباح
وإذا عمدت لصخرة أسهلتها ... أدعو بأفلح مرة وربـاح
إن امرأ أمن الحوادث جاهلا ... ورجا الخلود كضارب بقداح
ولقد أخذت الحق غير مخاصم ... ولقد دفعت الضيم غير ملاح

فمع إحساسه بالخوف والحزن لدنو أجله ، راح يتمجد بتفريج كربة المحتاج مما تجود به نفسه السمحة من ماله الوفير ، وافتخر بمقاومة الخيل المغيرة بالسلاح وبإطفاء نار الحرب كلما شب ضرامها ، وبقيادته كتائب قومه ، وانصياعهم لأوامره وبأنه من قوته وصلابته بحيث يفتت الصخور ، ويدعو من يعينه على الفوز والنجاح وأخيراً يعتز بقدرته على أخذ حقه بدون مخاصمة أو مقاومة ، لأنه قادر أيضاً على دفع الضيم فعلا لا قولا .

وتلك صفات كان العربى من قديم يرددها ، وتأثر بها سعية فتمدح بها ، وإذا كان يستقبل الموت فإنه يرجو أن يكون تأبينه مما تذكره النوائح إشادة بمفاخره التى تبقى على الأيام ذكره ، وتعلى بين الناس من قدر قومه ، وتنفخ فيهم من روحه .

ويقترب شعر سعية من شعر الشعراء العرب فى الصياغة كذلك ، كاستعمال بعض أساليب الرثاء فى قولهم : لا تبعد ، والانتقال من غرض إلى غرض على وجه من « الاقتضاب» مستعملين (واورب) كما فى قوله : (ومغبرة شعواء) ، هذا مع إحساسنا بقوة أسلوبه وتلاحم نسجه مما ينبىء عن صدق مشاعره .

وهكذا غلب عليهم البكاء أحياء وأشباه أحياء ، لأن الخوف من المصير متمكن من قلوبهم ، فذهبوا فى تبديده كل مذهب ، كما صنعوا بالفخر وكأن مراثيهم لأنفسهم ، ولبنى جنسهم « حائط مبكى» كلما نزلت بهم مصيبة ناءوا بحملها ، وأية مصيبة أكبر مما حاق بهم يوم أبى جبيلة ، ويوم مالك بن العجلان فى الجاهلية ، فقد كانت مذبحة جعلتهم يرددون القول فيما بعد : كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل . وسنرى فيما بعد ما صنع الله بهم ، وما سلط عليهم من غضبه ونقمته زمن البعثة ، وانتصار دعوة الإسلام وانتشارها.

---

(٣)

شعراء اليهود فى صدر الاسلام

لم تنته بعد قصة البكاء ، منذ فتنوا وذلوا واستضعفوا فى تلك الأرض ، وقد لجأوا إلى الأوس والخزرج يتعززون بهم جواراً وولاء ، فبعد أن كان هؤلاء الأوس والخزرج ينزلون فى عفاء من الأرض ، ومع الأهلين فى قراهم ، وبعد أن لم يكن لهم غير النخل اليسيرة ، وما يستنبت من الأرض الموات وبعد أن كان لليهود الأموال وسكنى الآطام ، والأمر والنهى ، وإيواء من يرضون عن إيوائه . تبدلت الحال منذ أن ضيق عليهم فى الجنوب من الحبشة ، وبعد أن نكبهم أبو جبيلة الغسانى الخزرجى ومالك بن العجلان فى الشمال ، وكدأبهم كلما صرح الشر لهم ذهبوا يترددون إلى الجيران من أبناء (قيلة) الغسانيين وإلى غيرهم من مزينة وغطفان ، ولم ييأسوا من أمرهم كل اليأس ، ماداموا يمتلكون قوى المخاتلة والكيد ، ومن ثم راحوا يلتمسون المخرج كلما سدت السبل فى وجوههم. وقد وجدوا أن لامخرج لهم إلا أن يوقعوا العداوة والبغضاء بين الأوس والخزرج ، وسرعان ما هبت رياح الفتن فى نواحيهم بما أثارت اليهود من أيام « فارع » و«الرعل»

حتى صارت إعصاراً يوم « بعاث» وكلها مواضع فى نواحى يثرب[١] ، وكانت بعاث من أموال بنى قريظة ، فيها مزرعة لهم يقال لها (قورا) ، وقد أنهكت الأوس كما أنهكت الخزرج وكادت تنهزم الأوس لولا استماتتها فانهزمت الخزرج ، وأثخن فيهم حتى صاح صائحهم : « يامعشر الأوس : أسجحوا ولا تهلكوا إخوتكم ، فجوارهم خير من جوار الثعالب »[٢]

وليس غريباً أن تتناهى الأوس عن الإثخان فى الخزرج بينما تمعن قريظة والنضير فى سلبهم ، ثم انتهى ذلك اليوم ، وقد استعادت اليهود بعض ما فقدته من هيبة وكان عليهم أن يحرصوا الحرص كله على الوفاء بأحلافهم ، وكانوا فريقين حتى جاء الإسلام . أما (بنو قينقاع ولفهم فكانوا حلفاء الخزرج ، وأما النضير وقريظة ولفهم فكانوا حلفاء الأوس[٣]) يظاهر كل حليفه ، إلا أنه لما ضاق أبناء «قيلة» ذرعاً بالخلاف وسفك الدماء، واستشعروا صلة الرحم الجامعة ، والدم العربى ينبض فى عروقهم — تهادنوا وتواصلوا ، وكادوا يجتمعون على رجل منهم قيل إنه (هو ابن أبى الخزرجى (لولا أن هداهم الله بالإسلام ، وأعزهم به ، فأجابوا الرسول إلى ما دعاهم إليه ، وصاروا أنصاره وأصحاب دار هجرته ، وقد أسلم فيمن أسلم كبراؤهم وسادتهم، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً، وازدادوا بالإسلام قوة ومنعة ونعموا بالطمأنينة والسلم والأخوة فى الله ، ولكن هل يتوقع أن يخضع اليهود لصاحب الدعوة الجديد ، وهو ليس (مسيحهم) المنتظر من بنى إسرائيل ؟ ألا إنهم سرعان ما ثبت فى صدورهم نيران الحسد والبغضاء ، فبيتوا له ، وكادوا لأمره منذ تظاهروا بوده ، فى محاولة منهم لاستدراجه ، وقد رأوا منه سماحة وتلطفاً لهم عندما كتب لهم كتاب أمان وذمة عاهدهم فيه وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم ولهم ، ولكنهم ما لبثوا أن تخوفوا المصير ، وتحسسوا طريق الخيانة والغدر، واستخدام أساليب الكيد والمكر ، وكان ما كان مما تحفل به كتب السيرة والتاريخ فقد نصب أحبارهم للرسول العداوة بغياً وحسداً من عند أنفسهم ، وتعنتوه بإثارة

---

(١) قيل أن « رعل » اسم أطم من آطام المدينة وكذا فارع (مراصد الاطلاع المجلد الثالث حرف الفاء) .

(٢) الأغانى ٦٨/١٧ وما بعدها ط. بيروت ومعنى أسجحوا : أحسنوا العفو.

(٣) سيرة ابن هشام ٥٤٠/١

ألوان من الجدل . ولبس الحق بالباطل ، والمبالغة فى إظهار روح العناد والإصرار على إنكار رسالته ، وصد الناس عن دينه ، ولكنه كان غير يائس من إبلاغ ما أنزل إليه من ربه ، عندما كان يتوجه إلى (مدراسهم) ، فيأبون عليه ، ويزدادون كفراً ومقتاً وإنكاراً لدعوة الأنبياء من غير بنى اسرائيل ، ثم بلجوا واستكبروا استكباراً حين ادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وتمادوا حين جحدوا بنبوة عيسى عليه السلام وتهجموا على ذات الله[1] — سبحانه وتعالى — وظلت الحال كذلك نحو ثمانية عشر شهراً ، قضاها الرسول (عليه السلام) فى تكوين أمه واحدة وتأسيس دولة مؤمنة فى المدينة ، حتى جاء أمر الله بمدافعة هؤلاء المعتدين ، وقطع الطريق على المشركين ، وأذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، فقد أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، ثم ووجهوا بأصحاب عصبية دينية وعنصرية لا يؤمنون بغير القوة ، ولا يخضعون إلا لمن يأخذ على أيديهم ، ويرد عليهم كيدهم ويقتلهم تقتيلا أوينفيهم من الأرض ، ليمضى فى أداء رسالته ، ويعلى كلمة الله ويتم نوره ، وهكذا فعل بهم « محمد » بعد أن عرف أمورهم ، وبطن من أخبارهم وما نقضوا من ميثاقهم ، وما زين لهم الشيطان من أعمالهم وأقوالهم ، عندما تناول سفهاؤهم وشعراؤهم الرسول وأصحابه بالأذى وفحش القول ، وكادوا للمؤمنين بالتغزل فى نسائهم ، حتى أثاروا حميتهم عليهم فاستدرجهم المؤمنون بالمكر ، وقابلوا كيدهم بالكيد ، وملأوا قلوبهم بالخوف من يوم أن دبروا مقتل (كعب بن الأشرف) وقد كان زعيم قومه ، ومثير الفتنة ضد الرسول وصحبه منذ غزوة بدر ، وقد أظهر من الفزع لما أصاب قريشاً من مقتلة عظيمة قائلا : (هؤلاء أشراف العرب ، وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها) ومضى نحو مكة مثيراً للمشركين ضد الرسول ، لا يبالى غير ماتدعوه إليه نفسه الخبيثة ، وطبعه الغادر ، وحسده وحقده ، وخوفه أن يصيبه مثل ما أصاب أباءه الأولين من قبل قيام دعوة السيد المسيح — عليه السلام — وتنكيل قياصرة رومة بهم حتى قضوا عليهم فى أرض المعاد ، وصاروا بدداً فى الأرض ، ثم لا حقهم أصحاب النصرانية ونكلوا بهم ، كما فعلوا بمتهودة اليمن ، خشى كعب ذلك وتوقعه من صاحب الرسالة

---

(١) انظر سيرة ابن هشام الصفحات ١/٥٦٣ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧١

الجديدة ، وقد كان يظن به شراً ، ولا يستبطن ثقة فيه وخيراً . ومن أجل ذلك توجه إلى من بقى من سادة قريش ليحرضهم على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب بقوله :

طحنت رحى بدر لمهلك أهله ... ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم ... لا تبعدوا ، إن الملوك تصرع
كم قد أصيب به من ابيض ماجد ... ذى بهجة يأوى إليه الضيع
طلق اليدين إذا الكواكب أخلفت ... حمال أثقال يسود ويربع
ويقول أقوام أسر بسخطهم ... أن ابن الأشراف ظل كعباً يجزع
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا ... ظلت تسوخ بأهلها وتصدع
صار الذى أثر الحديث بطعنة ... أو عاش أعمى مرعشاً لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم ... خشعوا لقتل أبى الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه ... ما نال مثل المهلكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم ... فى الناس يبنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنما ... يحمى على الحسب الكريم الأروع

إن مقتل كعب بن الأشرف — وهو الشاعر الفارس ، والزعيم حليف الوثنية ضد الرسالة والرسول — كان بداية النهاية لليهود واليهودية فى شبه الجزيرة العربية ، ومنذ مقتله أصبحوا وقد توجسوا خيفة ، واستشعروا الذلة والمسكنة كما تردد فى قول كعب بن مالك الأنصارى :

فغودر منهم كعب صريعاً ... فذلت بعد مصرعه النضير

ومن أجل ذلك ، لجأوا إلى التمكن بالحصون كلما حزبهم أمر ، أو نقضوا عهداً بينهم وبين الرسول ، وقد وجدنا بنى النضير — قوم كعب بن الأشرف — دبروا مكيدة لقتل النبى ، فقضى الله بإجلائهم ، فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى (أذرعات) بالشام وعندئذ فرح المؤمنون بنصر الله وفتحه ، فقد كان ابن الأشرف حقيقاً بأن يصرع ، وهو الذى استهلت دموعه لمهلك السادة من قريش ببدر داعياً

---

(١) انظر سيرة ابن هشام ٣/٥٥

أن لا يبعدوا ؛ لأنهم الأشراف الأماثل ، ومأوى البؤساء إذا أزم الشتاء ، وهم حمالو المغارم وهم الرؤساء أصحاب المغانم ؛ لذلك كان جزع كعب عليهم بزعمه ، فقد أراد برثائهم أن يؤلبهم على قاتليهم ، وأن يثأروا لأنفسهم ، وقد خشعوا لقتلاهم ، وجدعوا أنوفهم ، ولم يبق إلا أن يزوروا يثرب بالجموع ليحموا أحسابهم . ويبقوا على أنفسهم .

وفرح المسلمون بمقتل كعب ، لأنه كان لسان سوء ، وداعية فتنة ، كما كان تياهاً بغناه وفتوته ؛ وهو القائل لعرسه ، وقد خشيت عليه يوم مصرعه :

« لو يدعى الفتى لطعنة لأجاب» .،ومثله كان يمضى فى عداوته لله ولرسوله والمؤمنين إلى أبعد غاية إلا أن تكافحه القوة ، ليخلو الطريق لدعوة الحق أو تبلغ مداها . ومن أجل ذلك راح بعض شعراء المسلمين يعلنون عن الفرحة لمصرعه ، ويمجدون القوة المؤيدة للحق ، ويفخرون بمثل قول حسان :

لله در عصـــابة لا قيتهـــم ... يابن الحقيق وأنت يابن الأشرف
حتى أتوكم فى محـــل بلادكم ... فسقوكم حتفاً ببيـــض ذفـــف
مستنصـــرين لنصر دين نبيهم ... مستصغرين لكـــــل أمر مجحف(١)

ويمثل قول شاعر آخر مدافعاً عن الرسول ، ومخوفاً لليهود ؛ ومنذراً لهم بمصير مثله :

ألستم تخافـــون أدنى العذاب ... وما آمن الله كالأخـــــوف
وأن تصرعوا تحـــت أسيافـه ... كمصرع كعـــب أبى الأشرف
غداة رأى الله طغيانـــــه ... وأعرض كالجمـــل الأحنـف
فأنزل جبريـــل فى قتلـــه ... بوحـــى إلى عبـــده ملطـــف
فدس الرســـول رسولا لـه ... بأبيض ذى هبـــة مرهـــف
فباتـــت عيون لـــه معولات ... متى ينـــع كعـــب لها تذرف
وقلـــن لأحمـــد ذرنا قليلا ... فإنا من النـــوح لم نشتـــف

---

(١) السيرة لابن هشام ٣/٦١ ـ وذفف بمعنى سريعة القتل .

فخلاهـــم ثم قال اظعنـــوا ... دحورا عـــلى رغـــم الآنف
وأجـلى النضير إلى غربـــة ... وكانوا بـــدار ذوى زخـرف
إلى أذرعـــات رداقى وهـم ... على كل ذى دبر أعجـــف[1]

وعرفتنا تلك الأحداث التى نزلت بهم فى مدينة الرسول بشعراء آخرين منهم سماك اليهودى الذى هاجه مقتل كعب بن الأشراف، وإجلاء بنى النضير ، وكان هو من قريظة ، — وهما الكاهنان من ولد هارون[2] (عليه السلام) ومن ثم راح يتوعد ويهدد ، ويرد على شعراء المسلمين ، ويبكى ابن الأشرف ومن قتل من بنى النضير ، وينعى عقر النخيل ، صنيع من يستنهض الهمم للدفاع عن الأنفس والثمرات ، وينتظر مما يرجو أن تدور الدوائر على من قتل النضير وحلفاءها ، ومن عقر النخيل قبل قطفها ، ولكن أنى يستجاب له أو تتحقق أمانيه فى قوله :

إن تفخـــروا فهـو فخر لكم ... بمقتـــل كعب أبى الأشرف
غداة غدوتم عـــــلى حتفـه ... ولم يأت غدراً ولم يخـــالف
فعل الليـــالى وصرف الدهـور ... يديل من العادل المنصف
بقتـــل النضـــير وأحلافها ... وعقـــر النخيـــل ولم تقطف
فإن لا أمت نأتكم بالقنـــا ... وكل حسام معـــاً مرهف
بكـــف كمى به يحـــتمى ... متى يلق قرناً له يتلـــف
مع القـــوم « صخر » وأشياعه ... إذا غاور القـــوم لم يضعف
كليث بترج حمى غيـــله ... أخى غابة هاصر أجـــوف[3]

وقد كذب اليهودى فى قوله عن كعب : إنه (لم يات غدراً ولم يخلف) وتمنى الأمانى على الليالى وهو يعرض — فيما قيل — بالرسول (العادل المنصف) ، وغفل

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٠٦/٣ — والجمل الأحنف : المائل الى ناحية . أبيض ذو هبة مرهف : سيف ذو اهتزاز قاطع — ذو دبر اعجف : جمل مجروح هزيل . هذا وقد ورد فى تفسير قوله تعالى : « يؤمنون بالجبت والطاغوت » : الجبت : حيى بن اخطب ، والطاغوت : كعب بن الأشرف . (معانى القرآن للفراء) ٢٧٣/١ فى تفسير سورة النساء . الآية (٥١) .

(٢) الأغانى ٩٧/٢٢

(٣) سيرة ابن هشام ٢٠٨/٣ — ترج : مأسدة بنواحى نجد — الأجوف : العظيم الجوف .

عن الله الذى كتب عليهم الجلاء ، ولهم فى الآخرة عذاب النار ، وأنى له ما توعد به ، وقد قال الله فيهم : (لا يقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى).

ومن أجل ذلك راح يستنصر بأبى سفيان وشيعته ، ويستصرخ بالوثنيين على المؤمنين أصحاب دعوة الحق والتوحيد ، أليس ذلك عجيباً من أهل التوراة التى وصتهم كثيراً بمحاربة عبادة الأصنام ، ومخاصمة عباد الأوثان ؟ وقد نكر جانبهم هذا واحد منهم هو « إسرائيل ولفنسون » فى كتابه (تاريخ اليهود فى بلاد العرب).

إن مقتل كعب بن الأشرف — كان إيذاناً بحرب بنى النضير ، وجاء الأمر بإجلائهم تنفيذاً لحكم الله ، الذى قذف فى قلوبهم الرعب ، وكتب عليهم الجلاء لأنهم شاقوا الله ورسوله ، « وليس معقولا أن يغضب الرسول من بنى النضير دون أن يكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها »[1] ، ولعل ما قاله كعب بن مالك الأنصارى فى قصيدته ما يوضح الأسباب والظروف التى أحاطت بمقتل كعب ابن الأشرف وإجلاء قومه :

لقد خزيت بغدرتها الحبور ... كذاك الدهر ذو صرف يدور[2]
وذلك أنهم كفروا برب ... عزيز ، أمره أمر كبير
وقد أوتوا معا فهماً وعلماً ... وجاءهم من الله النذير
نذير صادق أدى كتاباً ... وآيات مبينة تنير
فقالوا ما أتيت بأمر صدق ... وأنت بمنكر منا جدير
فقال : بلى لقد أديت حقاً ... يصدقنى به الفهم الخبير
فمن يتبعه يهد لكل رشد ... ومن يكفر به يجز الكفور
فلما أشربوا غدراً وكفراً ... وحاد بهم عن الحق النفور
أرى الله النبى برأى صدق ... وكان الله يحكم لا يجور
فأيده وسلطه عليهم ... وكان نصيره نعم النصير
فغود منهم كعب صريعاً ... فذلت بعد مصرعه النضير

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٣٥
(٢) الحبور : هم الأحبار علماء دينهم .

عـــلى الكفين ثم وقـــد علته ... بأيدينـــا مشهرة ذكـــور
بأمـــر محمد إذ دس ليـــلا ... إلى كعـــب أخـــا كعب يسير
فمـــا كـــره فأنزله بمكـــر ... ومحمود أخـــــو ثقـــة جسور
فتـــلك بنو النضير بدار سوء ... أبارهـــم بمـــا اجترموا المبير
غداة أتاهـــم فى الزحف رهواً ... رسول الله وهو بهـــم بصـــير
وغســـان الحمـــاة مؤازروه ... على الأعـداء وهـو لهم وزير(١)
فقال : السلم ، ويحكم ، فصدوا ... وحالف أمرهـم كـــذب وزور
فذاقوا غـــب أمرهم وبـالا ... لكـــل ثلاثـــة منهـــم بعـــير
وأجلـــوا عامدين لقينقـــاع ... وغـــودر منهم نخـل ودور(٢)

وهكذا قص كعب بن مالك خبر تلك الواقعة فى سياق من البيان المشرق بنور اليقين ، والمتأثر بأعظم حظ من البيان القرآنى وهديه ، حاملا على أحبار اليهود حملة صادقة لأنهم كفروا بالله العزيز مع أنهم ممن أوتوا الكتاب والفهم والعلم ، وقد جاءهم النذير فكذبوه ، وهم الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؛ ويعرفون أنه إنما يبلغ رسالة ربه ؛ فمن اهتدى فلنفسه ومن كفر فعليها ، فما ازدادوا إلا غدراً وكفراً ونفوراً ؛ فجزاهم بما غدروا وكفروا ، وسلط عليهم أقرب الناس منهم ممن هدى الله ، فها هوذا أخو كعب من الرضاع « أبو نائلة » يمكر به ، وهاهم أولاء قومه بنو النضير بدار سوء ومذلة فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب فراحوا مذعورين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، وذاقوا وبال أمرهم عندما أجلوا إلى حيث إخوان لهم من يهود بنى قينقاع تاركين وراءهم مغانم كثيرة مما أفاء الله على رسوله من نخل ودور نعم بها الفقراء من المهاجرين .

وقد أثارت حملة كعب بن مالك ثائرة شاعرهم سماك اليهودى ، فمضى يردعليه ويبكى ابن الأشرف وقومه بنى النضير ، وهكذا استمر البكاء منهم وعليهم ، وعلا

---

(١) يقصد بغسان : الأنصار من الأوس والخزرج (انظر فتوح البلدان ١/١٥ وما بعدها) .

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٢٠٩ — ١ وعندما أجلى بنو قينقاع أقاموا فترة بوادى القرى ثم احتملوا وساروا صوب الشمال حتى بلغوا أذرعات ببلاد الشام على الحدود من أرض المعاد) .

صراخ شاعرهم لمقتل كعب (سيد الأحبار) وهو وصف لا يليق به ، وإن كان يعبر بصدق عن حقيقة من وصفوا بالأحبار ، وإن كثيراً منهم ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، فباءوا بسخط من الله ، وعندما مكروا بالرسول مكر الله بهم . . . وغودر ابن الأشرف تسيل منه الدماء على مدارعه ونكبت اليهود من بنى النضير وقريظة بموته ، ولم ينفع تهديد سماك ، ولا ماأراد ببكائه من إثارة حميتهم ، واستنفارهم للأخذ بثأره من قاتليه ، وذلك فى قوله :

أرقت وضافنى هم كبير ... بليل غيره ليل قصير
أرى الأحبار تنكره جميعاً ... وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم ... به التوراة تنطق والزبور
قتلتم سيد الأحبار كعباً ... وقد ما كان يأمن من يجير
تدلى نحو محمود أخيه ... ومحمود سريرته الفجور
فغادره كأن دماً نجيعاً ... يسيل على مدارعه عبير
فقد ، وأبيكم وأبى جميعاً ... أصيبت إذ أصيب به النضير
فان نسلم لكم نترك رجالا ... بكعب حولهم طير تدور
كأنهم عتائر يوم عيد ... تذبح وهى ليس لها نكير
ببيض لا تليق لمن عظماً ... صوافى الحد أكثرها ذكور
كما لا قيتم من بأس « صخر » ... بأحد حيث ليس لكم نصير (١)

وقد مضى على أثر الجاهليين فى نكء الجراح ، فعير المسلمين بما وقع يوم أحد ، وكان كعب بن مالك أول مبشر بنجاة الرسول حينما نادى بأعلى صوته : يامعشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله ، فأشار إليه الرسول ليسكت ، وكان لصيحة كعب أثرها عند قريش ، وقد أشاعوا موت النبى ، حتى إن أبا سفيان (صخرا) راح يفتقده فى القتلى ، ولكن الله سلم ، وما لبث المسلمون أن استردوا اطمئنان نفوسهم ، وأعادوا الثقة فيهم ، ثم كان ما كان من خبر بنى النضير ، حين نكثوا

---

(١) سيرة ابن هشام ٢١١/٣ — ضافنى : نزل بى كالضيف — والمدارع جمع مدرعة : ثوب من صوف أوجبة مشقوقة المقدم — العتائر جمع عتيرة : ذبيحة كانوا يذبحونها لآلهتهم فى الجاهلية — لا تليق : لا تبقى — والمراد بصخر أبو سفيان.

عهدهم وتآمروا على حياة الرسول ، وكأنهم أرادوا أن ينتقموا لمقتل كعب بن الأشرف ، لولا أن الرسول جاءه خبر السماء بما أرادوا من الغدر به ، فجوزوا عليه بإجلائهم عن المدينة ، فمنهم من قصد الشام ومنهم من استقر بخيبر من أمثال سلام ابن أبي الحقيق أخي الربيع الشاعر ، وحيي بن أخطب ، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وكلهم من القادة الذين لم ينسوا ما أنزل الله بهم من عذابه ، وما أوقع عليهم المسلمون من عقاب ، فراحوا بدوافع من الحقد والحسد وطلب الثأر يحرضون قريشاً ولفهم وغطفان ومن تبعهم ، وقد أجمعوا على حرب الرسول ، وجمعوا جموعهم يوم الأحزاب ، وواعدهم اليهود بتأييدهم والمقاتلة معهم ولكن الله نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وجاء أمر الله لرسوله بالمسير إلى بني قريظة بعد أن أفلح حيي بن أخطب في حملهم على نقض ميثاقهم ، وقطع يد المعونة عن أهل يثرب ، وقد كان ذلك من شروط موادعتهم للرسول والمسلمين وانضمت بذلك إلى الأحزاب ، بل قاتل المتعصبون في صفوفهم ، فحاصرهم الرسول حتى جهدهم الحصار (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم ، وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً)[1] ، وأنفذ الرسول فيهم حكم سعد بن معاذ الموافق لحكم الله ، بأن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال وتسبى الذراري والنساء[2] ، وأتى بحي بن أخطب رأس الفتنة فيهم ، وقد غلت يداه إلى عنقه بحبل ، مبدياً جلداً في قوله يخاطب الرسول وهو يساق إلى الموت : أما والله ما لمت نفسي في عداوتك ، ولكنه من يخذل الله يخذل . ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس ، أنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني اسرائيل ، ثم جلس فضربت عنقه[3] ، ومن ثم راح شاعر اليهود جبل بن جوال الثعلبي يبكي حيي بن أخطب أول الأمر ، ومضمناً مقالته السابقة بيتين من شعره هما :

---

(١) سورة الأحزاب الآيتان ٢٧ ، ٢٨

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٢٤٤/٣ وما بعدها .

(٣) سيرة ابن هشام جـ ٢ ص ٢٥١

لعمرك مالام بن أخطب نفسه ... ولكنه من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغى العز كل مقلقل

وكان جبل هذا متهوداً من عرب غطفان ؛ فهو ينتسب إلى بنى ثعلبة بن سعد ابن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، ولعله كان من صنائعهم فبكاهم كما كانوا يبكون إخوانهم من بنى النضير وبنى قينقاع ، بل إن كثيراً من الشعر قيل فى هذه المناسبة ، فقد روى من شعر حسان بن ثابت قوله فى يوم بنى قريظة :

تفاقد معشر نصروا قريشا ... وليس لهم ببلدتهم نصير
هم أوتوا الكتاب فضيعوه ... وهم عمى من التوراة بور
كفرتم بالقران وقد أتيتم ... بتصديق الذى قال النذير
فهان على سراة بنى لؤى ... حريق بالبويرة مستطير(١)

والملاحظ أن الشعر الإسلامى فى تصوير هذه المعارك ، وتسجيل هذه الأحداث قد لجأ إلى تحليل المواقف وذكر الأسباب ، وتحديد الغايات ، فهو بمثابة وثائق تاريخية لإثبات هذه الوقائع ، وذكر ملابساتها وتفسيرها ما اتسع لذلك مجال بيانه إلى جانب ما لحظناه فيه .

ولم يسكت جبل بن جوال ، فقد هاجه ما قال شعراء المسلمين ، وبخاصة حسان عندما أجابه وبكى النضير وقريظة فى قوله :

ألا يا سعد سعد بنى معاذ ... لما لقيت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بنى معاذ ... غداة تحملوا لهو الصبور
فأما الخزرجى أبو حباب ... فقال لقينقاع لاتسيروا
وبدلت الموالى من حضير ... أسيداً ، والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سلام ... وسعية وابن أخطب فهى بور
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا ... كما ثقلت بميطان الصخور
وكل الكاهنين وكان فيهم ... مع اللين الخضارمة الصقور

---

(١) السيرة ٣/٢٨٥ — ومعنى تفاقد الدعاء عليهم بالفقد — والبويرة موضع بنى النضير خارج المدينة (تصغير بئر) — مراصد الاطلاع ١/٢٣٢

وجـــدنا المجـــد قد ثبتوا عليه   بمجد لا تغيبه البـــــدور
أقيمـــوا ياسراة الأوس فيهـــا   كأنكم من المخـــزاة عـــور
تركتم قدركم لا شئ فيهـــــا   وقدر القوم حاميـــة تفور(١)

فهو يعرض بسعد بن معاذ الأوسى حليف بنى قريظة ، ويندد بحكمه فيهم ، ويقارن بين موقفه من حلفاء قومه وبين موقف عبد الله بن أبى الخزرجي حليف يهود بنى قينقاع الذى طلب إلى الرسول أن يحسن فى مواليه منهم ، وأن يبقى عليه فى بلادهم ، وإن لم يكن قد استجيب له فيهم إذ أخرجوا من ديارهم ، مشيراً إلى قول عبد الله بن أبى للرسول : إنى والله أخشى الدوائر ، ومع ذلك بدلت الموالى وأقفرت محلة النضير بالبويرة حتى صارت بوراً بعد أن كانت عامرة بأهلها ومنهم سلام بن أبى الحقيق ، وابن أخطب ، وسعية .

ثم مضى الشاعر يبكيهم — مع ملاحظة البكاء الدائم عليهم وعلى أبناء الكاهنين جميعاً من قريظة والنضير ، ويهجو أشراف الأوس بما يدل على حقده وسخطه عليهم وقد خذلوهم ؛ وحكموا فيهم بما اعتقدوا أنه الحق والعدل الذى يبقى على المسلمين حياتهم ويمكن لهم فى الأرض .

وحق لمثل جبل أن يبكى قوماً كانوا أولياءه ، مع أنهم ثبتوا على الخيانة والغدر ، وأقاموا على مناوأة كل من ظنوا به شراً ، أو توقعوا منه أن ينالهم بمكروه ، وهم أحرص الناس على حياة ملؤها الخداع والمكر ونقض المواثيق فى سبيل البقاء والتسلط ، وقد كانت تلك الغاية تبرر كل الوسائل التى لجأوا إليها وعرفت بهم وعرفوا بها منذ أن وقر فى نفوسهم أنهم شعب الله المختار ، ومنذ أن باءوا بغضب من الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة من عهد بختنصر إلى عهد تيطس وهادريان إلى عهد أبى جبيلة الغسانى ومالك بن العجلان ، حتى كان عهد رسول الله الذى أخذ يتعقبهم غازياً فى آخر حصونهم بخيبر ، وفى خلال تلك العهود تكسر ما صلب من رقابهم ولم يبق منهم إلا صوت خافت من أصوات الشعر هو

---

(١) السيرة ٣/٢٨٥ — ومعنى ميطان : جبل من جبال المدينة كان به بئر ماء — ومعنى البدور الأيام والشهور .

صوت اليهودى الحميرى (مرحب) يكاد يلفظ أنفاسهم الأخيرة فى فخره الخائف يوم أن تم القضاء عليهم — غير من عوهدوا — وقد طلع على المسلمين من حصنه شاكى السلاح مرتجزاً بقوله :

قد علمت خـــيبر أنى مرحب شاكى السلاح بطـــل مجرب
أطعن أحياناً وحينـــاً أضرب إذا الليوث أقبلت تحـــــرب
إن حـــاى للحمى لا يقـــــــرب[١]

وعندما نادى فى القوم من يبارز ؟ أجابه كعب بن مالك :

قد علمت خـــــيبر أنى كعب وأننى متى تشب الحـــرب
ماض على الهـــول جرىء صلب معى حسام كالعقيـــق عضب
بكف ماض ليس فيـــه عتب ندككم حـــتى يذل الصعب[٢]

ومضى له محمد بن مسلمة الموتور الثائر ، وأسكته ، وأخرس لسانه إلى الأبد ، كما سكتت من قبل ألسنة جرى على عذباتها فخر الخائف ، وبكاء الواجف ، وتحريض الحريص ، إذ (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر)[٣] .

ثم يبقى من بعد ذلك ما جرى على ألسنتهم من فنون القول الأخرى كالغزل ، ومن الطبيعى ألا يصدر عنهم — وهم من وصفنا — صدوراً ينبىء عن عاطفة صادقة ، أو هوى غلاب يدفعهم إلى التعبير عن خلجات نفوسهم ، ولواعج أشواقهم ، وفرط حنينهم مثلما يعبر العاشق فى حرارة وصدق ، وإحساس بلذة الوصل ، ولذعة الفراق أو الهجر . إن ما بقى لهم من شعر فى الغزل قليل ، وربما ضاع فيما ضاع من شعرهم ، إذ لم تبق لهم قصائد كاملة أو مطالع قصائد إلا هذا اليسير الذى روينا أكثره .

نقول هذا ونحن نستقرىء ما قالوه من غزل فلا نجد إلا بعض المقدمات لشعر مفقود كقول سعية :

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٤٤/٣ وما بعدها — ومعنى تحرب : اى تقبل مغضبة.
(٢) السيرة ٣٤٨/٣ ، ومعنى العقيق العضب : السيف اللامع كالبرق القاطع ، ومعنى العتب : النقص والفساد .
(٣) سورة البقرة من الآية (٩٧) .

يادار سعدى بأقصى تلعة النعم حييت داراً على الإقواء والقدم
وما يجزعك إلا الوحش ساكنة وهامد من رماد القدر والحمم
عجنا فما كلمتنا الدار إذ سئلت وما بها عن جواب خلت من صمم[1]

وقد قال عنها أبو الفرج : إنها مما يغنى فيه ، ولكن هل ينفعها الغناء إذا فقدت صدق التعبير عن حال صاحبها ؟ إننا لا نكاد نخرجها عن الإطار التقليدى للمقدمة الطللية التى تحدثت عن الدار المقوية الخالية وما حلت بها من وحوش بعد رحيل ساكنيها ، وقد بقيت بعض الآثار اليسيرة كرماد القدر والحمم ، وهى كل ما احترق من النار ، ثم هذا السؤال ، والعى عن الجواب ، ثم تحيتها على سبيل الوفاء : كل ذلك وغيره مما يتكرر فى كثير من المقدمات الطللية ، ورددده شعراء الجاهلية حتى صارت تقليداً ، ونمطاً ثابتاً ، ولا يدل فى كثير من الأحيان على عاطفة صادقة . ولا يعبر عن تجربة حقيقية ، وإنما هى الرغبة فى الغناء ، وتهيئة الجو الشعرى للغرض الذى أراد التعبير عنه :

وربما كانت مقدمة النابغة فى (رائيته) خير مثال للنماذج المتكررة إذ يقول:

عوجوا فحيوا لنعم دمنة الدار ماذا تحيون من نؤى وأحجار
أقوى وأقفر من نعم وغيره هوج الرياح بهابى الترب موار
وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار[2].

وإن يكن النابغة قد استوفى عناصرها ، ووقف سعية عند تعداد بعضها تاركاً أهم عناصرها ، وهو وصف تلك الآثار الباقية وتصويرها ، كما نجد ذلك عند كثير من شعراء الجاهلية ، ومما لاشك فيه أن « سعية » لم يعش بحق عيشة العربى البدوى ، ولم ينبض قلبه بمثل ما نبض به قلب ذلك العربى .

ومن النماذج الأخرى من شعرهم فى الغزل قول الربيع بن أبى الحقيق :

دور عفت بقرى الخابور غيرها بعد الأنيس سوافى الريح والمطر

---

(١) الأغانى ١٩/٣ طبعة ساسى ، ومعجم البلدان ٤٢/٥ (فى تلعة النعم التى قال عنها أنها موضع بالبادية) .
(٢) جمهورة أشعار العرب ص ٥٢

إن تمس دارك ممن كان يسكنها   وحشا، فذلك صرف الدهر والغير
حلت بها كل مبيض ترائبهـــا   كأنها بين كثبان النقا البقـر[١]

وهى أيضاً من أبيات الأصوات المغناة . ومع ذلك لا تكاد تتميز إلا بالقليل عن أبيات سعية وغير سعية ممن جروا على النمط التقليدى الخالى من الدلالة العاطفية الصادقة .

أما غزل أبى قيس بن رفاعة فى مقدمة قصيدته ، فإنه لم يتجاوز ذكر الحنين إلى صاحبته واللهج بذكرها ، والكلف بها ، حتى أصبح هزيلا قليل الحركة كأنما سقى سم حية قاتل لساعته فى قوله :

إذا ذكرت أمامة فرط حـــين   ولو بعدت محلتها — غريـــت
أكلفها ولو بعدت نواهـــــا   كأنى من تذكرها حميــــــت
طليـح لا يؤوب إلى جسـمى   كأنى سم عاضهة سـقيت[٢]

وليس هذا الغزل من النوع الحماسى ، لعدم ملاءمته لفخره فى أبياته التالية، فهزال جسمه ، وكأنه حم أو سقى السم لا يتفق وما ذكره فى قوله :

وذى ضغن كففت النفس عنه   وكنت — على مساءته — مقيت
وسيفى صارم لا عيب فيــــه   ويمنعنى من الرهق النبيت الخ.

ولا ينبىء أول بيت فى غزله هذا عن أنه أول القصيدة ، إذ يكاد الشاعر الجاهلى يلتزم التصريع ، ولولا أنه شاعر من الأوس متهود ما أحسسنا صدق اللهجة فى هذا الغزل ، وإن لم يدل على صدق العاطفة ، وإنما هى الصياغة العربية القوية توهمنا بما لم يكن .

ثم نحس الروح الجاهلى ، والنفس العربية الراغبة فى اللذة ، والمتحمسة فى تحصيلها قبل فوت الشباب ، وإدراك الأجل عندما نقرأ غزل الشاعر أبى الذيال البلوى ، بنسبه العربى فيقبيلة (بلى) —وقد تهود من هذه القبيلة من تهود — إذ يقول :

---

(١) الأغانى ١١٩/٢٢ ط . بيروت — والخابور نهر بالعراق — وسوافى الريح هى ما تحمله الريح وتذروه — والترائب جمع تربية — أعلى الصدر موضع القلادة .

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٢٤٢

هل تعرف الدار خف ساكنها ... بالحجر فالمستوى إلى الثمد
دار لبهنانة خـد بجة ... تبسم عن مثل بارد البرد
أثت فطالت حتى إذا اعتدلت ... ما إن يرى الناظرون من أود
فيها ، فأما نقاً فأسفلها ... والجيد منها لظبية الجرد
لا الدهر فان ، ولا مواعدها ... تأتى ، فليت القئول لم تعد
وعداً محاصيله إلى خلف ... ذاك طلاب التضليل والنكد
هيفاء يلتذها معانقها ... بعد علال الحديث والنجد
تمشى إلى نحو بيت جارتها ... واضعة كفها على الكبد
نعم شعار الفتى إذا برد الليـ ... ـل وآضت كواكب الأسد
كأن ماء الغمام خالطه ... راح صفا بعد هادر الزبد
والمسك والزنجبيل عل به ... أنيابها بعد غفلة الرصد . .

ثم ينتقل مقتضباً هذا الغزل بقوله :

دع ذا ، ولكن رب عاذلة ... لو علمت ما أريد لم تعد(١)

وقد استوفى فى تلك المقدمة كل عناصر المقدمة الغزلية من الحنين إلى صاحبته، وما تثيره معاهد حبه مما يذكره بها فينصرف إلى وصف محاسنها ويشكو خلف مواعيدها ، ولكن ذلك يزيده تعلقاً بها فيعود إلى ما كان فيه من الحديث عنها ، وعن مشيتها وتنعمها ، وعن اللذة التى يجدها فتاها منها ، وصنيعه هذا يذكرنا بصنيع السابقين من الجاهليين ، فكثيراً ما صوروا المرأة العربية ممتلئة الذراعين والساقين ، وشبهوا الأسنان بالبرد ، وعجز المرأة بالكثيب وجيدها بجيد الظبية ، وريقها بالراح وبماء الغمام ، وطيب ثغرها برائحة المسك ، واستحسنوا رشاقتها ، وجمال قوامها ، وضمور بطنها أو (هيفها) إلى آخر ما كانوا يعجبون به من محاسنها وصفاتها مما جعل للمرأة العربية صورة خاصة ، وملامح بارزة نفتقدها فى

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٤٤ ـ والحجر ديار ثمود فى شمال الحجاز بين المدينة والشام والمستوى منه والثمد ثمد الروم كذلك ـ المراة البهنانة الخفيفة المرحة مع هدوء ورقة وطيب ريح : الخدلجة الممتلئة الذراعين والساقين ـ أثت : طالت ونمت ـ النقا : كثيب الرمال ـ هيفاء : ضامرة البطن ـ علال الحديث : متابعته ـ النجد : التعب والاعياء ـ كواكب الاسد : من بروج الصيف ـ غفلة الرصد : نوم الحراس .

المرأة اليهودية التي لم تحظ من الشاعر اليهودى الصريح النسب فى يهود بحظ يوضح جمالها ويبرز خصائصها ، وهو شاهد على أنه كان يقلد العربى ، ويسير على نهجه فى التعبير والتصوير . وإذا أحسسنا بجمال هذا الغزل فلأن الشاعر كما قلنا عربى صريح النسب فى (بلى) التى كانت تنزل حول تيماء ، إلا أنه دان بدين اليهود تحت وطاة ظرف من الظروف فى أغلب الظن .

ثم استخلص بعض شعراء اليهود الحكمة والوصايا من معاملة الناس وملاحظة التجارب فى الحياة اليومية فى البيئة العربية ، إلى تدبر عواقب الأحداث وما استمدوه من طباعهم ، واتجاه أفكارهم إلى شئون المال بخاصة فقد روى أن سعية بن العريض مر بتجربة أنطقته قوله :

أرى الخلان لما قل مالى ... وأجحفت النوائب ودعونى
فلما أن غنيت وعاد مالى ... أراهم — لا أبالك — راجعونى
وكان القوم خلاناً لمالى ... وإخواناً لما خولت دونى
فلما شذ مالى باعدونى ... ولما عاد مالى عاودونى[1]

وذكر الأصمعى أن سعية كان ينادم قوماً من الأوس يزورونه فى أوقات قد ألف زيارتهم فيها ، وحدث أن أغار عليه بعض ملوك اليمن فانتسف من ماله حتى افتقر ولم يبق له شيء ؛ فانقطع عنه إخوانه وجفوه ، فلما أخصب وعادت حاله وتراجعت راجعوه[2]، فقال ذلك مصوراً عجبه من أخلاق هؤلاء القوم ممن دعاهم خلان المال .

وإن تعجب فعجب قول شريح بن عمران اليهودى عن مؤاخاة الكرام :

آخ الكرام إن استطعت إلى إخائهم سبيلا
واشرب بكاسهم وإن شربوا بها السم الثميلا
أأسيد إن مال ملكت فسر به سيرا جميلا
إن الكريم إذا تسوأ خيه وجدت له فضولا[3]

---

(١) الأغانى ٢٢/١١٧ ط. بيروت .
(٢) المصدر السابق .
(٣) طبقات ابن سلام ص ٢٣٨ — والثميل : المنقع والفضول جمع فضل : الاحسان والمعروف .

ولكن يذهب عنك العجب عندما تدرك حقيقة ما أراده بالبيت الأخير ، وهكذا الحياة عند اليهودى أخذ وعطاء ، والأخذ كما ترى مقدم علی العطاء . .

ثم نختم القول بما يوضح مدى تأثر شعرهم بدينهم مدفوعين بعاطفتهم وثقافتهم فيه ، وسنقف عندما روى من شعر منسوب إلى السموءل وإلى أخيه سعية ، وعند أبيات تروى لأوس بن دنى (ذبى) القرظى ، وهم من ظهرت بعض الآثار الدينية فى شعرهم المروى الباقى .

فأما السموءل فقد رويت له الأصمعية (٢٣) التى يقول فى أولها :

نطفة ما منيت يوم منيت ... أمرت أمرها وفيها وبيت
كنها الله فى مكان خفى ... وخفى مكانها لو خفيت
أنا ميت إذ ذاك ثمت حى ... ثم بعد الحياة للبعث ميت . .

ولم يرو ابن سلام هذه الثلاثة الأبيات وكأنه نكرها ، فاتهمت بالوضع عند اللاحقين ، وبأنها لا تعدو أن تكون نظماً لبعض آيات القرآن الكريم ، وأحسب أنه يضاف إلى ذلك ضعف فى تأليفها ، وركاكة فى نسجها ، فاذا ما بلغنا قوله :

إن حلمى إذا تغيب عنى ... فاعلمى أننى كبير رزيت[1]

التقت رواية ابن سلام ورواية الأصمعى ، وتوثقت عندنا نسبة الأبيات التى اشتركا فى روايتها وهى ، مع بعض الاختلاف :

ضيق الصدر بالخيانة لا ينـ ... ـقض فقرى أمانتى ما بقيت
رب شتم سمعته فتصامـ ... ـت وغى تركته فكفيت[2]
ليت شعرى وأشعرن إذا ما ... قيل اقرأ عنوانها وقريت[3]
ألى الفضل أم على إذا حو ... سبت ، إنى على الحساب مقيت
ميت دهر قد كنت ثم حييت ... وحياتى رهن بأن سأموت

وما رواه ابن سيده [4] عن أبى سعيد السيرافى أن الخبيت فى البيت :

---

(١) يروى « عظيما » عند ابن سلام فى الطبقات ص ٢٣٦
(٢) يروى عند ابن سلام : كم فظيع سمعته .
(٣) يروى عند ابن سلام : قربوها منشورة فقريت .
(٤) المخصص ٣/٩٥ مما نقل محقق الأصمعيات الأستاذ هارون .

ينفـــع الطيب القليـــل من الرز ق ولا ينفـــع الكثـــير الخبيث

هو لغة قريظة والنضير ، ثم ما روى عن مناقشة الخليل والأصمعى فى لغة (الخبيث) هذه فى إبدال الثاء تاء فى أحرف منها الخبيث . هو مما يصحح نسبة هذا البيت أيضاً إلى السمؤل ، مع السكوت عن رواية بقيـة الأصمعية التى يبدو من أبياتها المذكورة هنا والمروية هناك أنه متأثر بثقافته الدينية وأبرزها إيمانه بالبعث والحساب وقراءة صحيفة الأعمال .

وأما تأثر أخيه سعية فى شعره بتعاليم دينه وآدابه ، فان ما روى منه قليل غير كاف فى الدلالة على قوة هذا التأثر ، وإن الجو الدينى تعكسه أبيـات أصمعيته التى أولها :

ألا إنى بليت وقـــــد بقيت وإنى لن أعود كما غنيت[1]

ويبرز هذا التأثر واضحاً فى بيته الأخير وهو :

وأجتنب المقـــاذع حيث كانت وأترك ما هـويت لما خشـيت

على أن بعض هذه الآداب كان مما يتفاخر به العربى الجاهلى متأثراً بحكمة العقلاء وبما ورثه من ملة سيدنا إبراهيم والأديان الأخرى . .

ثم يروى عن أوس بن دنى القرظى أن امرأته أسلمت وفارقته ، ثم نازعتها نفسها إليه ، فأتته وجعلت ترغبه فى الإسلام فقال فيها :

دعتنى إلى الإسلام يوم لقيتهـا فقلت لها : لا بل تعـــالى تهودى
فنحن على توراة موسى ودينـــه ونعم لعمرى الدين دين محمـــــد
كلانا يرى أن الرشادة دينـــــه ومن يهد أبواب المراشد يرشد[2]

وليس غريباً أن يقول : (ومن يهد أبواب المراشد يرشد) ، فقد قال حيى ابن أخطب حين سيق إلى مصرعه : (ولكنه من يخذل الله يخذل) ، واقتبس جبل ابن جوال مقالته تلك فقال :

لعمرك مالام ابن أخطب نفسه ولكنه من يخـــذل الله يخـــذل

---

(١) الأصمعية (٢٢) .
(٢) الأغانى ٢٢/٢ . ١ وما بعدها ط. بيروت .

وكلتا العبارتين أثر من آثار الدين ، مع ملاحظة أن القرآن كان يتلى وكانوا يسمعونه .

ثم تبقى دعوى أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر فى الدين وهجاء العرب أضاعه مؤلفوهم[١] . إذ هى فرض لم يقم عليه دليل من الشعر أو التاريخ . أما الشعر فقد علمنا مبلغ حرص الرواة المسجديين والمربديين على رواية أشعار اليهود ، ثم إن ما روى من شعر المشركين واليهود فى هجاء المسلمين ينقض هذه الدعوى ، وكذا ما روى فى التاريخ من أقوال اليهود فى محمد وصحبه ، وهم الذين قال الله فيهم (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)[٢] وكان مما روى من تحديهم وتعنتهم قول قائلهم للرسول مواجهة : أما والله لما لمت نفسى على عداوتك[٣] . وقول آخرين مهددين : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس[٤] .

وقد عرض شاعرهم بالرسول فى قوله المروى له :

فعل الليـــالى وصرف الدهـور يديل من العادل المنصف[٥]

وإذا بطل هذا الفرض فقد ثبت أنهم لم يكونوا غير جماعة من الناس استوطنوا أرضاً فروا إليها هاربين من القتل أو السبى ، أو جاءوا إليها راغبين فى العيش والتوطن والاستقرار ، ثم مازالوا يتكاثرون مالا وولداً حتى قويت شوكتهم ، فخطب الناس ودهم ، وحالفوهم . واستنصروا بهم ، منذ استردبوهم ، وتقرب بعض العرب منهم فتهودوا ، وتصاهروا معهم . ولما دالت دولتهم وجرى عليهم مثل الذى جرى على آبائهم بفلسطين من قتل وتنكيل ، ذلوا للقوة الجديدة ، وتقربوا إليها مستفتحين بهم ، ومتمسكين بأحلافهم خوفاً ورعباً من المصير المتوقع حين جاء الإسلام ، وتحقق ما أراد الله ورسوله من أنه لا يجتمع دينان فى جزيرة

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٢٢

(٢) سورة آل عمران من الآية ١٨٧

(٣) من مقالة حيى بن اخطب حين مصرعه (السيرة النبوية ٣/٢٥١) .

(٤) من مقالة بنى قينقاع (السيرة ١/٥٥٢) .

(٥) من شعر سماك اليهودى (السيرة ٣/٢٠٨) .

العرب (١). ومنذ كانوا إلى أن أجلوا ساروا على منهج ثابت وتعصب ظاهر لدعوتهم العنصرية من أنهم شعب الله المختار وفى أعماقهم شعور بالاضطهاد والخوف ؛ فما كان على شعرائهم وزعمائهم إلا أن ينفخوا فى أبواق الفخر الكاذب ليبقوا على الثقة بالنفس ، والشعور بالعزة والقوة ؛ التماساً للطمأنينة وانتزاع الخوف من القلوب مع استغلال أساليبهم فى المكر والكيد والنفاق والدس وإثارة النعرات العصبية بين القبائل المتنافسة تطبيقاً للمبدأ القديم : فرق تسد . ولما آذنت شمسهم بالأفول ، وقد جاء نور الله والعدل والحق شرعوا يتراجعون ، ولما ذهبوا مذاهبهم فى الكيد والختل مكر الله بهم ، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وسلط عليهم من لوى أعناقهم ، أو قطع رؤوس الفتنة منهم ، أو أخرجهم من ديارهم صاغرين ؛ وقد وجدنا الشعر يبكى مجدهم الغابر ، وحظهم العاثر كما يبكى رؤساءهم ، وغناهم وسلطانهم، ثم لم ينفعهم ما أبرقوا به وأرعدوا ولا ما حرضوا عليه ، إذ رأينا الفخر والبكاء والوعيد والتحريض إنما يعبر عن نفسية قلقة خائفة فى محاولات لبث الثقة واعتبار الذات دفاعاً عن العنصرية القومية ، ولما فشلت تلك المحاولات توقعوا ما قد أريد بهم وصدقوا فيما توقعوه ، فضوا يرثون ويبكون حتى كثر البكاء وكأنهم أمام (حائط مبكى) آخر ؛ وما عدا ذلك من شعر قالوه فى أغراض أخرى جروا فيه على النهج المطروق ، ولم يصدروا فيه عن تجارب حقيقية أو صدق إلا ما اتصل بحكمة المال ، وبعض ما خلفته تعاليم الدين فى نفوس من تأثروا به .

تلك جملة من أخبارهم ، وهذه سبيلهم فى الشعر وغايتهم من التغنى به ، وقد حاولت فى توضيح الأخبار ؛ وتفسير الشعر أن أعطى القارىء صورة متكاملة ترتبط فيها دلالات هذا الفن بمقومات الحياة التى عاشها اليهود بكل ماورثوه فى شبه الجزيرة العربية ، وتفسر مواقفهم المختلفة من الأحداث التى وقعت وتكشف عن الأغراض التى استهدفت .

وأرجو أن أكون قد وفقت ، وكان الله من وراء القصد .

---

(١) السيرة النبوية (٣/٣٧١) .

المراجـــع

١ — الأصمعيات : اختيار الأصمعي — تحقيق شاكر وهارون .

٢ — الأغانى : لأبى الفرج — طبعة ساسى وبيروت .

٣ — الأمالى : لأبى على القالى — طبعة دار الكتب .

٤ — تاريخ الأدب العربى : لبروكلمان — ترجمة د. عبد الحليم النجار .

٥ — تاريخ الأدب العربى : لبلاشير — ترجمة ابراهيم الكيلانى .

٦ — تاريخ الآداب العربية : لنالينو — طبعة دار المعارف .

٧ — تاريخ العرب العام : لسيديو — ترجمة عادل زعيتر — طبعة الحلبى .

٨ — تاريخ العرب قبل الاسلام (السياسى والدينى) : للدكتور جواد على — طبعة بغداد .

٩ — تاريخ سورية ولبنان وفلسطين : لفيليب حتى — ترجمة جورج حداد — ط . بيروت .

١٠ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب : لاسرائيل ولفنسون — طبعة القاهرة .

١١ — البيان والتبيين : للجاحظ — تحقيق هارون والسندوبى .

١٢ — جمهرة أشعار العرب : للقرشى — طبعة المطبعة الأميرية .

١٣ — ديوان السمؤل : تحقيق عيسى سابا — طبعة بيروت .

١٤ — السيرة النبوية : لابن هشام — تحقيق السقا — طبعة الحلبى .

١٥ — شرح ديوان الحماسة جـ ١ — للتبريزى .

١٦ — طبقات فحول الشعراء : لابن سلام — تحقيق شاكر .

١٧ — العقد الفريد : لابن عبد ربه — تحقيق أحمد امين وآخرين .

١٨ — فتوح البلدان جـ ١ : للبلاذرى — تحقيق المنجد .

١٩ — الفكر الدينى الاسرائيلى : للدكتور حسن ظاظا .

٢٠ — قصة الحضارة .. (الشرق الأدنى) : لديورانت — ترجمة محمد بدران .

٢١ — الكامل فى التاريخ : لابن الأثير — تحقيق الشيخ عبد الوهاب النجار .

٢٢ — الكامل فى اللغة والأدب جـ ١ : للمبرد .

٢٣ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ١ : لابن خلدون ـ المطبعة الاميرية .
٢٤ـ الكتاب المقدس ـ كتب العهد القديم .
٢٥ـ مراصد الاطلاع : للبغدادى ـ تحقيق البجاوى ـ طبعة الحلبى .
٢٦ـ معجم البلدان : لياقوت ـ طبعة بيروت .
٢٧ـ معجم ما استعجم : للبكرى ـ تحقيق السقا وآخرين .

هذا البحث.

- يقوم على منهج استقصاء النصوص، ودون الوقوف على الخصائص الفنية العامة: لغة ومضموناً وإيقاعاً.
- لم يفِ البحث بما وعد به من تحقيقه أشعار اليهود ومناقشة نسبتها، لتوثيق الصحيح ورفض الزائف.
- تسوده نبرة خطابية واضحة.